کیراتین

obeikandl.com

obeikandl.com

الكتاب	كيراتين - مجموعة قصصية/ د. سوسن عيسى
المؤلف	عيسى، سوسن
النوع	قصص عربية قصيرة
تصميم الغلاف وإخراج داخلي	شيماء رضوان
الطبعة	الأولى/ القاهرة ٢٠١٢
عدد الصفحات	١١٤ صفحة
المقاس	١٤×٢٠
تدمك	١- القصص العربية القصيرة

صرح للنشر والتوزيع | نفكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود
كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ)
برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني	darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني	www.dar-sarh.com
رقم الإيداع	٢٠١٢\٢٢٢٧٦
الترقيم الدولي	٩٧٨-٩٧٧-٦٣٨٢-٩٠-٩

ديوي ٠١, ٨١٣

حقوق النشر محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إليكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

obeikandl.com

كيراتين

مجموعة قصصية

د. سوسن عيسى

فكر بصمج حضارة

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى من علمتنى كيف أحب القراءة ؛

إلـــى أمـــي.

د.سوسن عيسى

obeikandl.com

obeikandl.com

مفترق

هبَّت الرياح سريعة وباردة لتصفع وجه أماني وتتلاعب بثيابها وتكاد أن تنتزع غطاء رأسها الأكثر قتامة من أفكارها.. فنظرت إلى مفترق الطرق الممتد أمامها نظرة حانقة وأقفلت بوابة البناية بالمفتاح ثم تحركت بسرعة لتبتعد عن المفترق ورياحه المستبدة وهي تضم سترتها السوداء حولها بإحكام وتمسح دمعتين ملأتا عينيها.

«أأرحل أم أبقى؟» تردد السؤال داخلها وهي تسير في خطوات سريعة وتُلقي التحية على اثنين من عمال الأمن في (الكومبوند) حيث تسكن وهي لا تعرف إلى أين تمضي، فقد خرجت من بيتها على عجل لتُهدئ من ثائرتها بعد نقاش حاد مع زوجها مهاب انتهى بقوله:

- طبعًا .. ما إنتي ما عندكيش أي إحساس بالأسرة عشان عمرك ما عشتي في أسرة.

obeikandl.com

- واتجوزتني ليه، ما إنت عارف ظروفي من الأول، هو أنا خبيت عليك حاجة؟

قالتها والتقطت سترتها وخرجت من الشقة وهي تكافح دموعها والأفكار تتناهبها.

لماذا يجرح الناس غيرهم؟ أفقط لأنهم كانوا ضحية لآخرين؟ هل يُغري الضعف الوحوش في داخلهم بمزيد من الافتراس؟ هل تجتذب دماء الروح ونزيف الكرامة أسماك القرش البشرية للإجهاز على ما تبقى منهما؟

ما الذنب الذي ارتكبتُه لحينما قرر أبي أن ينساق وراء حب امرأة أخرى ويهجر أمي بعد أن عذبها لسنوات لتخرج من شقة الزوجية وتتركها له كي يتزوج فيها بالمرأة الأخرى ولا يراني؛ أنا ابنته، إلا مرة كل بضع سنوات؟ ما الذنب الذي ارتكبته عندما سلَّم أبي كل ما يملك للمرأة الأخرى فعانيت أنا وأمي حتى كبرتُ وعملت وظننت أن متاعبي انتهت، ولكن هيهات؟ توقفت لثوانٍ لترد تحية أحد عمال الأمن: مساء الخير يا مدام أماني.

«أماني؟ أية أماني تلك؟ ربما كان يجب أن يسموني «أماني مجهضة»، يا رب، هل لهذا الألم من نهاية؟ لم يعد شيء يهمني، فمتى تنطفئ جذوة الحياة في صدري المرهق؟ متى يدق العمر أبواب الفناء؟»

□□

دارت مع الطريق وهي تدق الأسفلت بقدميها بعنف وكأنها تهدد الأفكار المتصارعة داخل رأسها: «لماذا يفعل الرجال ذلك، دائمًا يفعلون ذلك، لهم كل الصلاحيات وكل السطوة ولا يكتفون؛ بل يجرحون، ويقتلون معنويًّا، ومنهم من يقتل فعليًّا أيضًا»

قتلها أبوها هي وأمها بما فعل بهما.

وقتلها زوجها الأول بكلماته وتعريضه بما فعل أبوها..«قاتل ينتقد قاتلًا مثله .. يا للسخرية!».

قتلها بتعبيره المستمر عن خوفه من أن يرث ابنهما علاء «جينات» التفكك الأسري من عائلتها، ويشب غير مُقدر للمسئولية مثل أبيها.

قتلها لسنوات حتى قتله سائق أرعن وهو يعبر الطريق ذاهبًا إلى عمله وارتاحت أماني من القتل المستمر، لم تواجه مشكلة في تربية ابنها؛ فوظيفتها مرموقة وراتبها كبير .. حتى جاء مهاب؛ عميل يتردد على الشركة التي كانت تعمل بها مديرة للعلاقات العامة، أحبها أو هكذا ظنت، وتأكدت من أنها تحبه، ولكن: «حب؟!، يا للغباء! .. فالضحية حين أنجاها القدر من يدي الجلاد هبَّت لتبحث عن جلاد آخر، هل هو القدر أم إن بعض البشر لا يستطيعون أن يتركوا أنفسهم ليعيشوا في سلام؟»

تزوجت أماني من مهاب، ومرت سنوات دون أن ينجبا؛ فلم تهتم،

obeikandl.com

ولكنها ذهبت للطبيب وطلبت من مهاب أن يذهب هو أيضًا؛ حرصًا منها على أن يكون أبًا كما أنها أم وتقديرًا لمعاملته الحسنة لابنها الذي صار يحبه ويناديه: «بابا»، قال الطبيب أن مهابًا لا يستطيع الإنجاب؛ فذهبا لآخر ثم آخر حتى يئسا من الأمر واكتفيا بعلاء، الذي كبر سريعًا ووصل إلى مرحلة الدراسة الثانوية، في الوقت الذي اقتربت فيه أماني من الأربعين لتكتشف فجأة أنها «حامل».

جُن مهاب فرحًا وجُنت هي قلقًا، أقلقها أن تصبح أُمًّا من جديد بعد كل هذا العمر؛ كيف سترعى المولود الجديد؟ فقواها وطاقتها لم تعودا كما كانتا وقت ميلاد علاء، هل ستعيش حتى يكبر ويتخرج في الجامعة لترعاه حتى يتزوج؟ لم تكن أماني ترغب في رابط جديد يربطها بمهاب؛ فهما لم يكونا على وفاق منذ فترة طويلة؛ فلم يعد يسمعها أو يأبه بمشاعرها المتضاربة وقلقها ورغبتها في أن تسير الأمور على ما يرام؛ فهو يسمي هذا القلق بالهوس، ولا يُخجله أن يخبرها أنه يرى أنها تعاني قلقًا مرضيًا، وأنها «شبه مجنونة» بسبب ظروف نشأتها وترملها المبكر؛ فهو يُرجع كل شيء تفعله إلى ظروف نشأتها؛ الجرح الذي تود لو يُشفى، ولكن الناس يأبون عليها ذلك؛ فيضعون عليه الملح ويغمدون نصال كلامهم المسمومة فيه حتى اتسع وتمدد وكاد أن يقتلها.

سار تحمل أماني على ما يرام، على الرغم من سنوات عمرها التي لا

يُستحب فيها الحمل، وعلى الرغم من قلقها وتوترها .. وجاءت ليلى إلى الحياة؛ فنسيت أماني كل شيء، وفرحت كما ينبغي لأم أن تفرح بمولودة جديدة صحيحة معافاة جاءت على غير توقُّع. أما مهاب، فقد ثمل سعادةً بابنته وكلمة بابا المنتظرة. ومرت شهور، ولكن الأمور لم تستقم بينهما؛ بل ازدادت سوءًا؛ فهي قد صارت أكثر إرهاقًا مع متطلبات رعاية ليلى، وعملها الذي عادت إليه بعد ثلاثة أشهر فقط. طلب منها مهاب أن تحصل على إجازة فلم تتمكن؛ فالأمور لا تستقر في الشركة دونها، وإذا كانت ترغب في الحصول على إجازة فعليها أن تستقيل؛ ليأتوا ببديل.

زادت تكاليف المعيشة التي كانت أماني تتحمل نصفها منذ بداية زواجهما، ولكن هذا لم يمنع مهابًا من الشكوى، وتصاعدت الأمور بينهما؛ فهي مُرهَقة ومُتعَبة وتحتاج لمن يحتويها وهو ليست لديه طاقة للاحتواء، وهي تبذل جهدًا للاقتراب منه، ولكنه لا يرغب في القرب منها، ويدَّعي الإرهاق والتعب طوال الوقت، ولا يبادلها الكلام إلَّا قليلًا في مناقشات غالبًا ما تنتهي بخلاف يفسره هو بتأثير ظروف نشأتها، ويمعن في جرحها وتعذيبها رغم طلبها المتكرر أن يكف عن ذلك. كانا يتباعدان لفترة بعد كل خلاف، حتى صار التباعد المؤقت تباعدًا شبه دائم، ولم يعد يجمعهما إلَّا حفلات ليلى ومناسباتها في أحيان نادرة.

دارت أماني ثانيةً مع الطريق لتعود إلى بيتها وهي تلمح من بعيد

مفترق الطرق الذي هبَّت منه الرياح تعصف بالأشجار كما تعصف الأفكار برأسها المرهق:

ماذا أفعل الآن؟ أأرحل أم أبقى؟

حياتي مع مهاب لن تعرف السعادة ثانيةً؛ فهو لن يكف عن تعذيبي وإهانتي بسبب ظروف نشأتي وما فعله أبي بي وبأمي..

صار الجفاف هو السائد بيننا؛ فلا تفاهم ولا احتواء ولا مودة ولا رحمة، ما يربطنا هو ليلى فقط .. فمهاب يحب علاء بلا شك، ولكن علاء ابني أنا في النهاية.

لا أحتاج إليه ماديًا، وليس لدي أي أمل أو رجاء منه عاطفيًا؛ فهل أطلب الطلاق؟ هل أخلعه؟ هل يعقل أن أتمكن الآن من البدء من جديد؛ مع رجل آخر أو دونه؟

يا رب، طال بي العناء واستطال وتمطى حتى كاد أن يزهق روحي، أما آن للسعادة أن تدق أبواب المدن المحاصرة؟ أما آن لخيول البهجة أن تدك حصون التعاسة التي أحكمت قبضتها حول قلبي وروحي؟ أما آن لصهيلها أن يجتاح أحزاني ويبدد آلام السنين؟

يا رب، ألهمني الصواب.

□□

جففت أماني وجهها الذي غمرته الدموع؛ فقد اقتربت من بيتها وهي ما زالت لا تعرف ماذا تفعل؛ هل تذهب إلى شقة أمها القريبة وترسل أختها لتجمع حاجياتها وتأخذ ليلى وعلاء؟

هل تعود إلى البيت لتجمع حاجياتها وتأخذهما بنفسها؟

هل تعود وتخاطر برؤية مهاب، وربما بحوار معه قد يقوِّض عزيمتها ويغير من رأيها؟

ربما ليس من السيئ أن تغير رأيها؛ فقد يرغب في أن تعطيه فرصة للنقاش .. ربما أقنعها أن تبقى معه، أو فعل ما يقنعها بأن تتركه بلا تردد.

اقتربت من مفترق الطرق، وهبَّت عليها الرياح تكاد أن تنتزعها من مكانها وتنافس كفيها وقلبها في برودتهما؛ فاستدارت لتُدخل المفتاح في ثقب البوابة الحديدية الكبيرة، وتجتازها في الطريق إلى بيتها، وهي تسمع بكاء ليلى ينبعث من الداخل.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

فريسكا

(١)

«أُف، إيه الحر ده؟»

فكر إبراهيم وهو يفك كوفيته القطنية البيضاء ويبسطها، فيحركها الهواء ويظهر شكلها المربع كأنها طائرة ورقية من زمن الطفولة القديم: «جوهم عجب في البلد دي؛ تلج بالليل ونار بالنهار، الطف بينا يا رب». وضع إبراهيم كوفيته على وجهه لتحميه من أشعة الشمس وهو يعيد الاستلقاء في الصندوق المكشوف لسيارة النقل التي يستقلها ويسأل زميله جابر أن يرش قليلًا من الماء فوق الكوفِيَّة؛ فربما يُبرد وجهه قليلًا.

سافر إبراهيم طويلًا في الأيام الماضية؛ من قريته في المنيا إلى القاهرة، ثم إلى الإسكندرية. كانت خطته أن يعمل في أي عمل متاح ليجمع مالًا يساعده على إتمام دراسته بكلية الهندسة التي وصل فيها إلى السنة الثالثة؛ تلك الدراسة التي كان متفوقًا فيها على الدوام ولم تمثل له أية مشكلة على

obeikandl.com

الرغم من ضيق حال أسرته الذي جعل والده يتدبر تكاليف الدراسة بصعوبة بالغة. مضى الأمر على ما يرام حتى توفي الشيخ عبد الصمد في العام الماضي، تنهد إبراهيم وذكرى وفاة والده تطبق عليه وأدار وجهه ليخفيه عن أعين زملائه؛ لعلمه أنه على وشك البكاء.

لم يعانِ الشيخ عبد الصمد من المرض أبدًا، لكنه استيقظ ذات يوم وتوضأ وذهب إلى المسجد الذي يعمل إمامًا له ليقيم صلاة الفجر، وعاد إلى البيت جثة هامدة مُشيعة بدموع المصلين. أنهى الشيخ صلاة الفجر وسلم ثم استلقى على جانبه؛ فظن المصلون أنه يريد أن يريح مفاصله من انثناء وضع السجود وقراءة التشهد، ولكن الوقت مرَّ دون أن يعتدل؛ فقام المصلون ليتفقدوه، فوجدوه جسدًا بلا روح.

«الشيخ الطيب ذاهب إلى الجنة لا محالة؛ فلم يفعل سوءًا في حياته وقُبضت روحه وهو على سجادة الصلاة في المسجد فور أن أنهى صلاته» هكذا قال الناس، وهكذا تمنى إبراهيم وأشقاؤه وأمه التي قصم ظهرها أن يموت زوجها وهي لم تتجاوز الأربعين من عمرها، ويترك لها سبعة من الأبناء والبنات؛ أكبرهم إبراهيم، وصغراهم لم تتجاوز الثالثة من عمرها. ولكن هيهات أن يخفف ذهاب الوالد المُعتقد إلى الجنة من ألم افتقاد زوجة لزوجها أو أطفال لأبيهم؛ فمن يموت يرتاح من الدنيا وما فيها ويُبقي من خلَّفهم وراءه للمعاناة.

□□

بدأت توابع وفاة الشيخ عبد الصمد على أسرة إبراهيم بألم الفقد ولم تنتهِ به؛ فالشيخ كان إمامًا لأحد مساجد الأوقاف واقتضى معاشه الشهري كثيرًا من الإجراءات الرسمية لتحصل عليه الأسرة. كما أن الشيخ لم يكن يعتمد على راتبه فقط لتدبُّر الاحتياجات المالية لأسرته؛ بل كان يزرع قطعة الأرض الصغيرة التي ورثها عن أبيه، ويُدَرِّس القرآن للأطفال في الكُتَّاب، ويقرأ القرآن في سرادقات العزاء وفي بيوت أثرياء القرية يوم الجمعة؛ كل هذه موارد رزق انقطعت بوفاته؛ لتترك الأرملة المسكينة وأولادها بلا غطاء يقيهم قسوة الأيام.

استدار إبراهيم وهو يشد كوفيته البيضاء حول وجهه؛ كأنما ليعوض الغطاء المفتقد ويحمي نفسه من قسوة الأيام، وهو يجفف دموعه سريعًا قبل أن يراها أحد، ويراوغ الذكرى التي توشك أن تنقض عليه؛ ذكرى الحاجة المادية المضنية التي مرت بها أسرته؛ وكيف باعت والدته مصاغها القليل، وكيف عملت في مساعدة زوجات أثرياء القرية في الطهي والتنظيف، وكيف استدانت من كل أقاربهم حتى يكمل «الباشمهندس إبراهيم» السنة الدراسية، وقد أكملها وبقيت النتيجة التي يتوقع أن يتفوق فيها كما تعود، ولكن بقيت سنة أخرى ويتخرج ويصبح مهندسًا حقيقيًّا وليس لقبًا يتردد على ألسنة أبناء قريته فقط.

سنة واحدة لو أنهاها بتفوق، فربما يُعيَّن مُعيدًا في كليته، أو يستطيع

obeikandl.com

الحصول على عمل في أمريكا أو إحدى دول أوروبا، في إطار عقود العمل التي تتيحها كليته لخريجيها المتفوقين.

سنة واحدة ويعتدل ميزان الأيام معه، ويستطيع أن يعوض أمه الصابرة عما لاقته في السنة التي سبقتها، وعن ماء وجهها الذي بذلته لكل شخص استدانوا منه، ولكل امرأة عملت في منزلها.

سنة واحدة وتصبح أم إبراهيم أم «الباشمهندس» النابه الذي يُشار إليه بالبنان، وينحني لها كل من أذلها من الأقارب، وكل من أهانتها من النساء.

ولكن هل يكفي ما كان يوشك أن يفعله لعبور تلك السنة بسلام؟ لم يعرف إبراهيم يقينًا، ولكنه لم يجد سبيلًا غيره؛ فقد حاول أن يتدبر أمر سفره إلى أوروبا في الصيف للعمل في مزارع العنب، كما نصحه أحد زملاؤه بالجامعة، ولكنه لم يستطع جمع المبلغ الذي طلبه السمسار الذي يرتب هذا السفر غير الشرعي، ولم يبقَ أمامه سوى الحل الذي بدأ في تنفيذه منذ أيام؛ وهو السفر مع مجموعة الحاج محمود إلى الإسكندرية فور انتهاء امتحاناته للعمل هناك في المهن الصيفية، التي يزعم من جربها من معارفه أنها تُدر دخلًا معقولًا يمكن أن يساعده على تدبُّر أمره في سنته الدراسية الأخيرة.

وصل إبراهيم إلى الإسكندرية منذ أيام قليلة، والتقى محمدًا ابن الحاج

محمود الذي يقضي الصيف هناك لإدارة أعمال والده؛ فيوزع الشباب القادمين من قريتهم والقرى المجاورة على الشواطئ المختلفة للعمل في بيع السلع الصغيرة للمصيفين أثناء جلوسهم على شاطئ البحر؛ فالناس في أجواء الإجازات تخف الضغوط عليهم، ويصبحون أكثر قابلية لدفع المال في سلع رديئة لا يحتاجونها ولا تستحق ما يُدفع فيها، ولكن ماء البحر والشمس الساطعة والأجواء الصاخبة تذيب عنادهم وحرصهم على المال.

اعتدل إبراهيم جالسًا وهو يسند ظهره إلى حافة صندوق سيارة النقل ويريح ذراعه على الصندوق الزجاجي اللامع بجواره؛ فهكذا قرر محمد أن يكون دوره: بائع فريسكا؛ دور لم يفكر كثيرًا وهو يقبله؛ فالمهم هو أن يُدر عليه ما يحتاجه من مال، ولكنه ربما كان ليغير رأيه لو علم أنه سيكون عليه السفر لهذه المسافة في الشمس الحارقة بسبب الفريسكا بالتحديد؛ فما إن استقر به الأمر في الإسكندرية، وارتاح من الرحلة الشاقة من بلدته إليها، حتى حضر ذلك الرجل الأنيق بنظارته السوداء وسيارته الفخمة إلى الشقة التي كان يقيم فيها مع محمد وعشرين رجلًا وشابًّا ممن يعملون معه، حضر ذلك الرجل وذهب محمد معه لفترة وجيزة، ثم عاد وقال:

- إبراهيم وجابر، جهزوا نفسكم؛ هتسافروا بكرة مارينا

جابر: مارينا .. إيه مارينا دي يا عم محمد؟ وفين؟ وهنعمل إيه هناك؟

□□

محمد: يا متخلف .. مارينا دي مصيف الأكابر قوي، والراجل اللي جه ده سكرتير واحد من الباشاوات الجامدين هناك.

إبراهيم: الراجل أبو نضارة وبدلة ده سكرتير! أمال الباشا بتاعه يبقى إيه؟!

محمد: وهو اللي زينا يحلموا حتى يشوفوا الباشا بتاعه .. المهم، هم عندهم حفلات في مارينا وعايزين جو بلدي كأنهم على شط إسكندرية، طلبوا بياعين فريسكا، وشوية عيال من اللي بيلعبوا بالنار ويلعَّبوا التعابين وأبو الغيط وكدة، إنتوا هتروحوا، وهيجيبوا ناس من شرم كمان، والله أنا مش فاهم الناس دي؛ ناقص يطلبوا شوية حريم ينزلوا المية بالجلاليب، جتهم القرف في ذوقهم العفش. المهم، هتسافروا بكرة الصبح؛ جهزوا نفسكم، وأهو رزق الهبل عالمجانين.

(٢)

هدَّأت السيارة من سرعتها وهي تنحرف يمينًا لتجتاز البوابة الضخمة المكتوب عليها "مارينا ٣"؛ فتدحرج جابر وفتحي من مكانيهما ليصطدما بإبراهيم بعد أن اختل توازنهما، بينما تدارك سعيد وأسامة الأمر سريعًا؛ فتمسكا بحافة صندوق السيارة وهما يضحكان؛ تدحرجت السيارة ببطء

obeikandl.com

داخل طرقات مارينا وإبراهيم ما زال مغلقًا عينيه تحت الكوفية البيضاء، وهو يحاول أن يطرد أشباح الذكريات المؤلمة من رأسه؛ دارت السيارة يسارًا، ثم دخلت عبر بوابة ضخمة وتوقفت، ونزل السائق وهو يحثهم على النزول بسرعة؛ فرفع إبراهيم الكوفية عن وجهه، ودار بعينيه في المكان ملاحظًا الحديقة الكبيرة المزروعة بالنجيل، وأحواض الأزهار، والأشجار، والممرات الحجرية، والأراجيح الكبيرة بأرائكها الوثيرة ومظلاتها الملونة، وتلك الطفلة الشقراء التي تجلس في إحداها وشعرها الطويل يتطاير مع الرياح؛ فقال:

– ده حتى العيال و المراجيح هنا حاجة تانية خالص غير عندنا في البلد.

جابر: بلد .. بلد إيه يا أبو بلد، دي حاجة كدة شبه الجنة.

أسامة: إلا تجيلها كام قيراط الجنينة دي يا ولاد؟

جابر: قيراط إيه يا خايب، شايف الممرات دي، وراها جناين تانية، قول كام فدان مش قيراط.

نظر الجميع في الاتجاه الذي أشار إليه؛ فرأوا عددًا من المباني الكبيرة مستديرة الحوائط يتخللها عدد من الممرات المزروعة بالنجيل، والتي ظهر من خلال أحدها حافة متعرجة لحوض سباحة فيروزي اللون، وظهر آتيًا من ممر آخر السكرتير الأنيق الذي حضر لمقابلة محمد في الإسكندرية، وهو

obeikandi.com

لا يزال يحتفظ بنظارته السوداء على وجهه، وإن استبدل ببدلته الأنيقة جينزًا وقميصًا خفيفًا:

– حمدًا لله على السلامة يا رجالة، أنا عادل سكرتير حسني باشا، تعالوا ورايا.

ساروا وراءه، حتى دخلوا أحد المباني ذات الحوائط المستديرة، واجتازوا ممرًا متعرجًا إلى حجرتين فتحها عادل وهو يقول:

– هتناموا هنا يا شباب، ياللا رتبوا نفسكم وتعالوا اتغدوا في المطبخ؛ هنا في آخر الممر ده، والشغل من بكرة الصبح.

إبراهيم: لا مؤاخذة يا باشا، هو إحنا هنعمل إيه بالظبط؟

عادل: باشا إيه يا ابني؛ أنا صعيدي من بني سويف، اسمى أستاذ عادل .. اسم الكريم إيه؟

إبراهيم: إبراهيم يا باشـــ .. قصدي يا أستاذ عادل.

عادل: شوف يا إبراهيم، شوفوا كلكوا، حسني باشا عازم ناس كثير قوي اصحابه، أكترهم أجانب، وفيهم مصريين وعرب .. الناس دول هيقعدوا هنا أسبوعين، ومفروض إننا نضايفهم ونسليهم ونعمل لهم حفلة كل يوم من العصر لحد قبل الفجر بشوية، وبعد حداشر يوم

obeikandl.com

فيه حفلة كبيرة كمان عشان عيد ميلاد الآنسة "لى لى" بنت حسني باشا، وهييجي شباب وبنات كتير من صحابها غير ضيوف حسني باشا .. الناس دول كلهم ما يعرفوش حاجة عن الجو البلدي بتاعنا وعايزين نفرجهم عليه، بيقولوا عليه "أوريينتال" وبيفرحوا بيه قوي، حاجة غريبة طبعًا، بس هم وشوقهم .. يبقى إنتوا هتعملوا اللي كنتوا بتعملوه في إسكندرية وشرم؛ اللي بيلعَّب تعابين يلعَّبها واللي بيلعب بالنار يلعب، وأبو الغيط يلف ويدور، وبياع الفريسكا ينادي عليها على الشط واللي ينده له يروح يديله.

جابر: طيب وعيد ميلاد الآنسة ليلو هنعمل فيه إيه؟

عادل: ليلو إيه يا ابني .. لى لى؛ دلع علياء يعني، هيبقى فيه حفلة من الظهر لحد بالليل، وهتعملوا زي ما أنا لسة قايلكوا؛ فيه كمان رقاصة وطبال وشوية عازفين جايين النهاردة بالليل، فين بتاع الفريسكا؟

إبراهيم: أنا.

عادل: إنت جايب معاك كمية كفاية زي ما اتفقت مع محمد، صح؟ هاتها نحطها في التلاجة.

انصرف عادل وترك إبراهيم ورفاقه يرتبون حاجياتهم الهزيلة، ويتبادلون الملاحظات الفرحة عن الحجرتين النظيفتين بحوائطهما

□□

البيضاء، والأسِرَّة الوثيرة التي يشاهدونها لأول مرة تعلوها البطاطين السميكة الملونة، وجابر يردد:

- مش قلتلكوا حاجة شبه الجنة.

أتى عصر اليوم التالي سريعًا، وانطلق إبراهيم ورفاقه إلى الشاطئ وكل منهم يحمل معداته، واتخذوا أماكنهم التي حددها عادل واثنين من مساعديه؛ وقف إبراهيم داخل مقصف كبير تعلوه مظلة من القش بجوار اثنين من الشباب يعملان في إعداد المشروبات والمأكولات الخفيفة لعدد كبير من الضيوف تعالت أصواتهم من خلف الكثبان الرملية الواطئة الواقعة بين البحر والمقصف؛ حمل إبراهيم صندوق الفريسكا على كتفه، وسار متجهًا نحو الشاطئ هو يستعيد ما قاله له عادل:

-كل نص ساعة خد لك لفة، وقرَّب من الضيوف، ونادي على الفريسكا زي ما بتعمل في إسكندرية بالظبط.

دار إبراهيم حول كثيب الرمل الذي يخفي الضيوف عن عينيه وهو يتشمم رائحة البحر ويفكر: «فعلًا حاجة شبه الجنة، حتى البحر هنا ريحته غير إسكندرية». أتم دورته حول كثيب الرمل، وألقى نظرة؛ فدارت الدنيا به، وأحس بحرارة الجحيم تنشب داخله.

إبراهيم .. الذي كان أقصى ما رآه عن قرب من البشرة النسائية هو

obeikandl.com

المساحة ما بين أطراف الأصابع حتى الكوع؛ عندما كانت أمه أو أخته حنان، التي تصغره بعامين، تشمران عن سواعدهما للعمل في المطبخ أو التنظيف.

إبراهيم .. الذي لم يشاهد من الأفلام والأغاني سوى ما كانت تعرضه القنوات المصرية، حين كان طفلًا، في التليفزيون الأبيض والأسود الصغير الذي اشتراه أبوه ثم باعه بعد فترة وجيزة هو يقول:

– بلا سفالة وقلة أدب؛ حريم شعرها باين ولابسين لبس مسخرة، بلا تليفزيون بلا زفت.

إبراهيم .. الذي منعه أبوه من الجلوس على المقهى مع الشباب من أقرانه بعد أن شاهد أحدهم يمسك بشريط فيديو بين يديه وشكَّ في نوعية الأفلام التي تُعرض في المقهى؛ فأوسعه ضربًا، حتى بعد أن أقسم له أنه لم يشاهد أي فيلم.

إبراهيم .. كان على موعد مع أكبر مساحة من البشرة النسائية المكشوفة التي رآها في حياته.

إبراهيم .. أصبح فجأة أمام عشرات من النساء والفتيات، من كل الأعمار، في ثياب السباحة ذات القطعتين، وبكل ألوان البشرة..

البيضاء التي بدأت لتوها التعرض للشمس

□□

obeikandl.com

والمتوردة بلفحة أشعة ما قبل الغروب الحانية

والسمراء من طول الاستلقاء على رمال الشاطئ

والسوداء بطبيعتها

وكل ألوان وأطوال الشعر النسائي الذي لم يره عن قرب إلا عندما كانت أمه تمشط شعرها وتجدله في ضفائر تصل طرفها بشريط من القماش الأسود؛ لتجعل الشعر يبدو أكثر طولًا..

الأشقر الذهبي الذي تستقر الشمس في خصلاته

والأحمر المكسو بدمها وهي ترحل غاربة في المياه الزرقاء

والأسود بلون السماء في ليلة تنعي مقتل الشمس ولم يدركها القمر بعد

وكل ألوان العيون التي تخيل أو لم يتخيل وجودها..

الزرقاء كموج البحر الذي يهدر على مقربة منه

والخضراء بلون شجيرات العنب حديثة النمو التي زرعها على نافذة غرفته في القرية

والبُنية بلون لحاء شجر الكافور المغسول بماء المطر

والسوداء بلون جلباب أمه الطيبة وخمارها الطويل

□□

obeikandl.com

تراجع إبراهيم خطوتين إلى الخلف بعد أن عجزت ساقيه عن حمله، ووضع صندوق الفريسكا الزجاجي على الأرض، وهوى على ركبتيه بجانبه وهو يستحضر ذكرى الشيخ عبد الصمد عندما ظبطه يتلصص من نافذة غرفته على مجموعة من فتيات القرية كُنَّ يمرحن معًا وهُنَّ في طريقهن للعمل في الحقل بعد صلاة الفجر، وكيف أطبق على ذراعه حتى كاد أن يكسرها وهو يقول:

- بتبص على إيه يا عديم النخوة؛ ما تطلقش بصرك في حريم الناس يا إبراهيم عشان الناس ما تطلقش بصرها في حريمك، ولو لقيت حريم قدامك في السكة يا إبراهيم غض بصرك عشان ربنا ما يرميكش في جهنم، هتعمل إيه ساعتها يا إبراهيم؟

قالها وهو يضغط على ذراعه بشدة كادت أن تقسمها إلى نصفين، فرد بصوت يتقطع ألمًا:

-أغض بصري، والله حرَّمت .. هأغض بصري على طول.

إستعاد إبراهيم الذكرى؛ فأيقن أنه هالك لا محالة: «يا مصيبتك السودة يا إبراهيم .. إيه اللي جابك هنا، فينك يا شيخ عبد الصمد؛ ما كانش عاجبك الحريم اللي كاشفين شعرهم، أمال دلوقت هتقول إيه، لا ما ينفعش، ما ينفعش أقعد هنا، أغض بصري إزاي يا شيخ عبد الصمد

obeikandi.com

وأنا شايف اللي شايفه قدامي؛ صعب قوي والله .. صعب قوي، لو كنت لسة حي وجيت هنا كنت هتعرف إنت تغض بصرك؟»

قالها إبراهيم في داخله واستدار ليعود إلى المقصف وفي نيته الرحيل، لولا أن طرق أذنيه صوتٌ بدا له كتغريد البلابل: فريسكا؛ فاستدار ليواجه وجهًا مستديرًا متوردًا يحيطه شعر مسترسل يختلط فيه الكستنائي بالذهبي وتلتف أطراف بعض خصلاته حول نفسها في شكل حلزوني لطيف، وجسدًا رشيقًا في ثوب سباحة أحمر من قطعتين يعلوه وشاح شفاف من نفس اللون، «دي حورية البحر دي يا واد يا إبراهيم، ولا جِنِّية، ولا إيه بالظبط» قال ذلك في داخله بينما هي تقول له:

– إنت ماشي رايح فين؟ ورينا معاك إيه.

لم يكن هناك بد من أن يضع إبراهيم الصندوق على الأرض وينحني بجواره ليُخرج عيِّنات مما بداخله؛ ليجد أصابع قدميها في مرمى بصره من مسافة قريبة جدًّا، أصابع دقيقة بدت له جميلة جمالًا لا يُصدق وعلى الأظافر طلاء أحمر لتبدو كقطع الحلوى التي اعتاد أبوه أن يشتريها له من دكان عم علي عندما كان طفلًا.

مد يده المرتجفة بقفازها البلاستيكي داخل الصندوق وهو يشير إلى أنواع الحلوى المختلفة بداخله ويتلقى طلباتها وطلبات من يرافقها من

الشباب والفتيات، حتى قالت له:

- اسمك إيه؟

- .....

- رحت فين؟ بقولك اسمك إيه؟

- ..... إبراهيم

- إيه مش فاكر اسمك؟ أنا علياء .. لى لى، باي.

قالتها ببساطة وهي تتراجع متقدمةً من كانوا معها من شباب وفتيات كلهم في ثياب البحر التي أثارت حيرة إبراهيم طويلًا؛ فهو لم يفهم لماذا تزيد مساحة ثوب البحر الرجالي عن مساحة ثوب السباحة الحريمي بقطعتيه، أليست النساء أولى بالستر؟ هكذا علَّمه أبوه هو وإخوته، ولكنه في عالم انقلبت فيه المقاييس على ما يبدو؛ لذا يجب أن يفر منه .. يفر!.. لا، لم يعد يرغب في الفرار .. قال لنفسه وهو يمشي في اتجاه المقصف: «لى لى، ده اسمها، أكيد بنت الباشا اللي قال عليها أستاذ عادل امبارح، مين يصدق إن فيه حريم كدة في الدنيا، أكونشى مت ودخلت الجنة يا ولاد؟»

بقي إبراهيم وهو يقنع نفسه أنه بقي سعيًا وراء الرزق، ويقاتل نفسه ليغض بصره؛ فينجح في أحيان كثيرة، إلا عندما تكون هي في مرمى

obeikandl.com

بصره؛ لى لى، حورية الماء، لم يكن باستطاعته أن يبعد بصره عنها وهي بعيدة، أما إذا اقتربت وحدثته فلا يستطع أن ينظر إليها مباشرةً، لا يقوى على مواجهة عينيها؛ بل تسقط نظراته تلقائيًّا إلى الأرض ليراقب أصابع قدميها بأظافرهما التي تشبه قطع الحلوى وترتعد شفتاه وتتقطع أنفاسه، حتى حمد الله على سمرة بشرته؛ فلو لم تكن كذلك للاحظ الجميع احمرارها مع ذلك الاندفاع الصاخب للدماء في كل جسده لمجرد اقترابها منه، ما الذي يحدث له؟ لم يعرف إبراهيم، ولكنه قضى كل ليلة منذ رآها مسهدًا يشرب كوبًا إثر كوب من الشاي الصعيدي الثقيل، ويراقب مياه البحر والأمواج السوداء ليلًا وهي تجاهد لتلحق بسابقتها دون أن تدركها، «أنا ولى لى زي موج البحر؛ كل موجة ما تقدرش تقابل اللي قبلها، أيوة، إحنا كدة؛ أنا لازم أبعد».

هكذا قال إبراهيم، وحاول، وفشل؛ فلم يكن له سيطرة على ذلك الإحساس الهادر الذي يعصف به كلما رآها، أو تلك الفرحة العارمة التي تغمره عندما تقترب منه وتأخذ قطعة من الفريسكا؛ فيتمنى لو كان هو الفريسكا بذاتها، حتى لو أكلته وانتهى أمره؛ فيكفيه لمس يديها وعطر أنفاسها .. سألته في إحدى المرات:

- إنت متعلم يا إبراهيم؟

□□

- أنا في كلية الهندسة، السنة الجاية بكالوريوس.

- واو! برافو عليك، أنا بأدرس فنون، بحبها قوي.

- في جامعة إيه؟

- أنا جامعتي في أمريكا يا برهومتي، بآجي مصر في الصيف بس.

برهومتي .. كلمة نطقتها ببساطة ومضت، فقضى إبراهيم ليلة كاملة يتساءل عما تعنيه بقولها هذا؛ هل تهتم بأمره؟ هل يمثل لها أي شيء؟ مستحيل؛ وهل تهتم من كانت مثلها بمن كان مثله؟ ولكن ما هذه النظرات والابتسامات التي تمنحها له؟ ماذا يعني أن تطلق عليه اسم تدليل من اختراعها؟ احتار إبراهيم ولم تنتهِ حيرته .. قضى أيامًا يراقبها وهي تلهو على الشاطئ مع رفقائها، ويلاحظ كيف تتعامل مع الشباب منهم خاصةً؛ فيتأكد عقله أنها لا تعامله معاملة خاصة، ولا يصدق قلبه، حتى وهو يراها في حفل عيد ميلادها وهي تمزح مع الشباب وتراقصهم على أنغام الطبال والموسيقيين الذين حضروا من القاهرة بما ينافس الراقصة المحترفة التي يشحب وجودها أمام لى لى ورقصاتها .. حتى وهو يراها تراقصهم على أنغام الصلصا الصاخبة التي اندفعت لها الدماء في رأسه؛ فودَّ لو قفز إليها وصفعها صفعة تجبرها على ستر جسدها والجلوس في هدوء كما يليق بالنساء؛ لم يصدق قلبه أنه ليس مختلفًا على الرغم مما رآه

من اختلاطها بالرجال من رفقائها اختلاطًا لم يعلم حتى أنه ممكن في عالمه.

رجال؟! لكن هؤلاء ليسوا رجالًا، على الرغم من عضلات صدورهم القوية المقسمة بدقة، وعضلات أذرعهم التي ينافس حجمها حجم رأسه بالكامل .. لا، ليسوا رجالًا..

وهل يكون رجلًا من يزيل شعر صدره وذراعيه مثل النساء حتى لو كان الهدف أن يلمع جلده المشدود فوق عضلاته القوية؟!

هل يكون رجلًا من يرقص فينافس النساء في هز خصره وذراعيه؟!

لا، هؤلاء ليسوا رجالًا؛ هو فقط الرجل، وهو من يستحقها لو أدرَكَت، ولكن كيف تُدرك؟ هذا غير ممكن. هو الذي يمكن أن يقودها إلى الطريق الصحيح؛ طريق الله، ويجعلها تستر جسدها الذي تتركه نهبًا للعيون دون أن تتحرك شعرة في رأس أبيها عديم النخوة؛ هل يعقل أن تدرك ذلك وتختار الطريق الصحيح الممهد بحبه الذي لا يوصف لها وتترك أهلها عديمي الحياء؟ هو فقير، ولكنه من أسرة رفيعة في بلدتهم، وسيصير مهندسًا، وربما حصل على عقد عمل في أمريكا وسافر معها إلى حيث تكمل دراستها وتبتعد عن جو أهلها الموبوء.

مضت الأيام بإبراهيم وهو يراقب لى لى ويحادثها عندما تقترب منه وتقول له : «يا برهومتي»؛ فيفقد توازنه ويوشك على السقوط، ويقضي

obeikandl.com

الليل في السهر مع كوب الشاي الصعيدي .. حتى انتهى الأسبوعان اللذان تعاقد عليهما محمد مع أستاذ عادل، وحان وقت الرحيل؛ فسأل الأستاذ عادل عن رقم تليفونه وعنوان الباشا في القاهرة بدعوى أنه يريد أن يسأل عنه وهو يفكر في أنه سيحتاج أن يذهب ليراها من بعيد؛ فلن يستطيع الحياة بغير ذلك .. سجَّل رقم التليفون بحرص على كف يده وعلى قميصه من الداخل بالإضافة إلى الورقة التي أعطاها له عادل، ثم رفع رأسه ليراها أمامه؛ هي بذاتها، بلمعة الشمس في شعرها وتورُّد الربيع في خديها، لأول مرة لا ترتدي ثوب السباحة ولكن جيبة قصيرة بيضاء وبلوزة بسيطة بلون السماء يسجد كُماها في استسلام عند أعلى ذراعيها:

– إيه ده يا برهومتي، إنت ماشي؟

– أيوة يا آنسة لى لى، أشوفك بخير.

– ومين هيجيب لي الفريسكا؟ هتوحشني يا برهومتي، خد دي عشان تفتكرني.

قالتها وخلعت عن معصمها ساعة زرقاء اللون من البلاستيك الشفاف المرصع بأحجار لامعة، ووضعتها حول معصمه وهي تكمل:

– خلي بالك، إوعى حد ياخدها منك دي غالية قوي؛ دي آيس ووتش أصلية، بس فيه منها تقليد بـ ١٠٠ جنيه، إنما دي بقى بـ ١٤٠٠، أنا بقولك عشان تخلِّي بالك، إوعى حد يشتريها منك رخيصة على إنها تقليد.

□□

– مش ممكن أبيع حاجة خدتها منك يا آنسة لى لى، ربنا يخليكي ليا.

قالها واحمر وجهه، وارتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وهو يقاوم دموعه التي توشك أن تسيل، بينما هي تقترب ببساطة وتُقبِّل خده:

– خلِّي بالك من نفسك يا برهومتي، باي.

قُبلة سريعة على الخد شاهدها تمنحها لرفاقها وضيوف أبيها من الرجال عشرات المرات، ولكنها جعلته يرتعد ويهتز حتى أوشكت ساقاه ألا تحملاه؛ فاستند على كتف جابر وهما في طريقهما إلى سيارة النقل التي ستعيدهما إلى الإسكندرية مع كل من جاءوا معهما. جلس إبراهيم في أحد أركان صندوق السيارة، ثم استلقى وغطى وجهه بكوفيته البيضاء ليخفي دموعه التي سالت لتغرق خديه، بكى كطفل وهو يتذكر كل لحظاته معها، كل كلمة قالتها له، كل شيء شاهدها تفعله، ولو من على بُعد. قضى الطريق في البكاء الصامت حتى تورمت جفونه؛ فحمد الله أنهم وصلوا إلى الإسكندرية في عتمة الليل ليخفي ضعفه بين طيات الظلام.

(٣)

مرت أيام إبراهيم في الإسكندرية بلا طعم أو لون، حتى انقضى الصيف وعاد إلى قريته دون أن يكف عن التفكير في لى لى؛ لم يمر يوم أو

ساعة دون أن تعبر ذهنه عدة مرات، إن لم تحتله طوال الوقت؛ صار الليل رفيقه، والسهر عادته، وكوب الشاي الصعيدي نوعًا من الإدمان الليلي يسكب فيه آلامه وحزنه على فراقها؛ حتى فقد الكثيرمن وزنه، ونتأت عظامه .. إلى أن اتصل بعادل ليعرف أخبارها؛ فاهتاج شوقه أكثر لرؤيتها:

- أيوه يا أستاذ عادل، أنا إبراهيم بتاع الفريسكا .. فاكرني؟

- إزيك يا إبراهيم، عامل إيه؟

- إزي حضرتك يا عادل بيه، وإزي الباشا؟

- تمام يا إبراهيم، بيجهز عشان يسافر أمريكا؛ الجامعة خلاص هتفتح هناك، والباشا دايمًا يسافر مع الآنسة لى لى في أول كل سنة يوصلها وبعدين يرجع.

لى لى ستسافر .. كيف يتركها تسافر دون أن يراها؟ طأطأ رأسه بحسرة «وهو أنا كنت هاشوفها حتى لو مش هتسافر؟» لا، السفر أمر مختلف ويجب أن يراها قبله؛ سيصنع بعض الفريسكا التي تحبها كما تعلَّم في الإسكندرية، وسيذهب إلى فيلَّا أبيها في القاهرة وينتظر حتى يراها؛ سيقول لها أنه يحبها كما لم يحب رجل امرأة من قبل وإنه يتمنى لو قبَّل الأرض التي تسير عليها، سيقول لها ذلك ثم ينصرف؛ ربما أراحه أن يخبرها حتى ولو لم يغير ذلك من الأمر شيئًا .. نعم، لا بد أن يراها.

□□

قضى إبراهيم يومه التالي في تحضير الفريسكا من السمسم والعسل والفول السوداني، ثم انطلق إلى المحطة ليلحق بقطار الليل المتجه إلى القاهرة. كانت رحلة طويلة من قريته إلى المنيا، ثم إلى القاهرة، ثم إلى مدينة الشيخ زايد الأنيقة حيث تقع فيلَّا حسني باشا. عندما وصل إبراهيم بعد ظهر اليوم التالي، اتصل بعادل ليخبره أنه يحمل «أمانة للآنسة لى لى»؛ فقال له عادل إنه ليس في الفيلَّا وأن عليه أن يطرق البوابة ويعطي الأمانة للحارس. همَّ إبراهيم بطرق البوابة، لكنها فُتحت وظهرت خلفها في ممر الحديقة الذي تحيطه الأشجار سيارة سوداء أنيقة يقف السائق بجوارها مستعدًّا لفتح الباب بينما لى لى تتحرك برشاقة قادمةً من الفيلَّا الكبيرة في اتجاه السيارة. لم يستطع إبراهيم كبح جماح شوقه؛ فاندفع يجتاز البوابة وهو يناديها:

– آنسة لى لى.

والحارس يتحرك خلفة مسرعًا وهو يصيح:

– رايح فين يا ابنى إنت.

ولكن لى لى أشارت له أن يتركه وقد أصبح الآن بجوارها تمامًا، وحركت نظارة الشمس إلى الأسفل قليلًا وتفحصته بعينيها الجميلتين فيما قلبه يتقافز في مكانه فرحًا و يكاد أن يخترق صدره من شدة النبض:

– إزيك يا آنسة لى لى.

– إبراهيم .. هاي، إزيك عامل إيه؟

□□

- أنا بخير طول ما حضرتك بخير، أنا جبت لك شوية فريسكا.

- فريسكا! أوكى يا إبراهيم، ميرسي.

قالتها بسرعة وقد بدت مختلفة عما عهدها في الفستان الهفهاف القصير والحذاء ذي الكعب العالي، وشعرها منبسط يتطاير حول وجهها الذي ما زال مستديرًا ومتوردًا، «هي ليه مش بتلبس إلا قصير وضيق؟ ليه ما بتسترش نفسها؟ هي مش حاسة إن الرجالة ليهم عيون؟ كل ده من الناس اللي حواليها أكيد .. لازم أقولها إني بحبها وعايز أتجوزها وإن عيشتها دي هتوديها جهنم وأنا خايف عليها .. أيوه لازم أتشجع وأقولها؛ مش يمكن عايزة تتوب عن عمايلها دي، كلها سنة وأتخرج ويمكن يجيلي عقد كويس وأسافر وأبقى حاجة تانية».

تحرك نحوها وقد تجاوزته بخطوة وهو يفتح فمه ليتكلم، ولكنها مضت نحو السيارة وهي تشير إلى السائق وتبتسم لإبراهيم ابتسامة متكلفة، فيما مد السائق يده إلى صندوق في (تابلوه) السيارة وأخرج مائتي جنيه مد يده بها لإبراهيم الذي شحب وجهه وتهدلت ملامحه وهو يسمعها تقول من داخل السيارة التي بدأت في التحرك:

- ميرسي على الفريسكا يا إبراهيم، باي

***

obeikandl.com

كيراتين

نزلت شروق من الـ(ميكروباص) قبل أن يتوقف تمامًا، عبرت الشارع بسرعة وهي تتلفت إلى الجانبين، ثم صعدت السلم وثبًا، لتضع المفتاح في الباب وتدخل وتغلقه وراءها. فتحت شباكًا ثم الآخر، تلفتت حولها وقد كسا وجهها تعبير حذر، وتحركت إلى الممر الداخلي لتفتح كل غرفة، وتتأكد من عدم وجود أحد بداخلها؛ بدءًا بغرفة أقنعة البشرة والجسم، مرورًا بغرفة المحجبات، والحمام، والمطبخ، وانتهاءًا بالصالة الخارجية الخاصة بغير المحجبات. حينها، قفزت إلى الباب لتغلقه بالمفتاح من الداخل، وتترك المفتاح داخل ثقبه، قبل أن تتحرك إلى الدولاب ذي الواجهة الزجاجية؛ حيث تنتظر الزجاجة المشتهاة. فتحت الدولاب بحذر وأمسكت بها وقلبها يرتجف، ضمتها إلى صدرها في حنان كحنان الأنثى لحبيبها أو الأم لمولودها، فتحتها ببطء زاد منه ارتجاف أصابعها، لتفرغ قليلاً جدًا من السائل الوردي العَطِر في زجاجة أخرى - تحتوي

obeikandl.com

على سائل بنفس اللون - أخرجتها من حقيبتها، ثم أعادت الزجاجة إلى الدولاب، وهي تبذل جهدًا للتأكد من أنها وضعتها في نفس مكانها السابق بالضبط. أغلقت الدولاب، ووضعت زجاجتها في جيبها وهي تتجه إلى الباب الذي اجتازته بسرعة قافزةً السلالم إلى مدخل العمارة. تلفتت حولها ثانيةً قبل أن تمد يدها وترفع قالبًا من الطوب الحراري - الذي يزيِّن حوض الزهور الكبير - من مكانه، ثم تدس الزجاجة الصغيرة في الفجوة التي ظهرت وراءه، وتعيد القالب إلى مكانه بسرعة. تراجعت إلى الخلف تتأمل حوض الزهور، ثم عادت إلى أعلى، بعد أن تأكدت أن كل شيء يبدو طبيعيًا.

دخلت من الباب ثانيةً، وقد أحست براحة لإنهاء مهمتها الصباحية الثقيلة. خلعت غطاء رأسها وهي تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار؛ بقي بعض الوقت قبل أن يصل الجميع، ويجب أن تنهي الكثير قبل ذلك. بدأت في تنظيف المكان بهمَّة؛ بدءًا من الصالة الخارجية إلى الداخل، ثم غسلت وجهها وذراعيها، واتجهت إلى الغرفة الداخلية؛ غرفة المحجبات، تناولت الـ(فلات آيرن) وأوصلتها بالكهرباء وهي تفصل الخصلات الأمامية والسطحية عن باقي شعرها المجعد الطويل الذي جمعته في حزمة واحدة، ثم بدأت في كي الخصلات التي فصلتها بسرعة ومهارة، وهي تفكر أنَّ (مسيو عادل) لو علم بمهارتها في استعمال الـ(فلات آيرن)

obeikandl.com

لرقّاها إلى درجة "كوافيرة" بدلًا من عمل "فتاة الحواجب" و"مساعدة الكوافير" الذي تقوم به. أنهت أفكارها بتنهيدة حزن؛ فهي لا تستطيع أن تخبر أحدًا أنها تكوي شعرها الخشن يوميًا في المحل قبل قدوم الجميع، وإلا فصلها مسيو عادل. ضمت الخصلات التي أصبحت ناعمة ولامعة بفعل الـ(فلات آيرن) إلى باقي شعرها، وصففته في شكل ضفيرة، ثم ألقت نظرة في المرآة لتتأكد من تناسق شكلها، غطت الخصلاتُ التي قامت بكيها الخصلاتِ الخشنة التي تحتها من الأمام وأعلى الرأس، بينما اختفت بقية الخصلات الخشنة داخل الضفيرة. سمعت خطوات في الممر الخارجي؛ فقد بدأ زملاؤها في الوصول. خرجت بسرعة من الغرفة إلى المطبخ المجاور، حيث تركت حقيبتها، وطوت غطاء رأسها ثم وضعته في الحقيبة، وخرجت مبتسمةً لتقابل زميلتها منى التي ألقت تحية الصباح بينما كان حسام؛ زوج منى، يدخل من الباب حاملًا بيده حقيبة تحتوي على طعام الإفطار.

بدأت شروق العمل في مركز التجميل الذي يملكه مسيو عادل منذ بضعة شهور، بعد أن انتقلت إليه من أحد محال الكوافير في منطقتها الشعبية حيث تعلمت تزجيج الحواجب وإزالة شعر الوجه بالخيط؛ المهنة التي بدأتها منذ حصولها على (دبلوم التجارة) واستمرت فيها حتى بعد زواجها من محمود، الذي كان قد مرَّ عليه عام وقت انتقالها للعمل في مركز مسيو عادل.

□□

محمود ... تنهدت شروق وهي تنظر إلى موقع خاتم الزواج الخالي من إصبعها؛ اضطرت لبيعه منذ شهور عندما احتاج محمود إلى المال لأحد مشروعاته الوهمية التي تنتهي دائمًا بالفشل. امتلأت عيناها بالدموع وهي تتذكر موقعة الأمس معه؛ عادت من العمل وهي غاية في الإرهاق، لتجده في انتظارها وقد عاد من المقهى مبكرًا، طلب منها نقودًا فوعدته أن تعطيه ما يريد بعد أن تقبض راتبها في أول الشهر، ولكن الوعد لم يكن كافيًا. تصاعدت المناقشة، حتى انتهت بصفعة على وجهها، غادر بعدها المنزل وهو يصيح بصوت سمعه كل الجيران: «مش كفاية إني إتجوزتك وإنتي وحشة وقصيرة وكارتة». وضعت شروق يدها على خدها وقد عاودها ألم الصفعة، وصوته ما زال يرن في أذنيها وكأن المشاجرة ما زالت مستمرة: «إنتي كارتة .. كارتة»؛ كلمته المعتادة التي يلقيها عليها في كل مشاجرة أو مناقشة، سواء كانا بمفردهما أم معهما أحد. سالت دموعها الصامتة وهي تقف في الغرفة الداخلية وتعد قناع البشرة لإحدى الزبونات المنتظر قدومها. تذكرت كيف كانت حياتهما سعيدة في الشهور الأولى للزواج حتى فُصل محمود من عمله، لم تستقم الأمور بينهما منذ ذلك الوقت رغم تحملها لنفقات البيت، زاد الوضع سوءًا تأخرهما في الإنجاب. ذهبا للطبيب بعد إلحاح من شروق، فقال إن محمودًا يحتاج إلى عملية جراحية بسيطة لعلاج الأمر، ولكنهما لم يملكا ثمنها؛ فقام الطبيب بوضع محمود

obeikandl.com

على جدول الانتظار في المستشفى المجاني القريب. مرت الأيام بطيئة على شروق التي كانت تعدها بالساعات، حتى جاء دور محمود، وصار ممكنًا أن يُجري العملية، لكنه رفض بدون سبب واضح، ولم تفلح توسلاتها، التي تحولت إلى مناقشات ومشاجرات حادة، في إقناعه بإجراء العملية. عرفت شروق بعد ذلك أنه يقضي وقتًا طويلًا مع أصدقاء جدد؛ مجموعة من مدمني الحشيش شدوه إلى عالمهم وأبعدوه عنها، كلَّمته كثيرًا، ولكن المناقشات كانت دائمًا تنتهي بالصفعة المعتادة وكلمة "يا كارتة" التي صارت كاسمها الثاني. غسلت شروق وجهها بقليل من الماء لتخفي أثر الدموع، وهي تسمع صوت (مدام باكي) في طريقها لعمل قناع البشرة، تركت الطبق المحتوي على مادة القناع لزميلتها (سامية) خبيرة البشرة، وتحركت بسرعة إلى الصالة الخارجية تحمل المقص والمشط لتساعد زميلها إسماعيل وهو يقص شعر (مدام هالة) التي استقبلتها بابتسامة. تحب شروق مدام هالة كثيرًا؛ فهي تمنحها (بقشيشًا) سخيًا في كل مرة تقوم فيها بتزجيج حاجبيها، وتكلمها دون تكبُّر. أفاقت من أفكارها على صوت مدام هالة: «شروق، عايزاكي تعملي لي حواجبي ووشي بعد ما أخلص قص، وقبل الصبغة والكيراتين». خفق قلبها وهي تسمع الكلمة الموعودة، جنتها الوارفة، وحل كل مشكلاتها الذي بقي لها القليل حتى تدركه؛ فشعر مدام هالة مجعد مثل شعرها، ولكن "الكيراتين" الساحر

يحوله إلى موجات من الحرير لبضع شهور متصلة، تعلم ذلك تمام العلم؛ فقد رأت مدام هالة وغيرها قبل وبعد استعماله.

تنهدت شروق ودعت في سرها: «يا رب، قرب البعيد» وهي تنتقل إلى الداخل مع مدام هالة لتزجيج الحواجب، الذي قامت به بذهن غائب، حتى انتهت وصارت وحيدة في الحجرة؛ فمددت جسدها قليلًا على الأريكة تحت جهازي (السشوار)، وقد هبط عليها تعب شديد؛ قضت الليلة السابقة في البكاء بعد أن ترك محمود البيت، ولكنها رغم إرهاقها؛ ظل السؤال يدور في عقلها بلا إجابة: «إذا كان شعرها يضايقه لهذه الدرجة، فلِمَ تزوجها؟» لم تُخفِ عنه شيئًا منذ البداية؛ كانت ترتدي الحجاب ككل الفتيات في منطقتها الشعبية، ولكنها، كمعظمهن أيضًا، كانت تراه مجرد زيٍّ للخروج. كان لبس الحجاب ضروريًا في مجتمعها اتقاءًا لكلام الناس، دون إدراك الهدف منه ودون تدين حقيقي؛ وهكذا فإنها بعد أن تمت خطبتها له، كان يرى شعرها في كل مرة يحضر فيها إلى البيت، ولم يعلق أبدًا، ولكنها أحست دائماً أنه معجب بشكله وبشعره الناعم الذي يهتم به كثيرًا، كما أحست أيضًا أنه يظن أنه أكثر جاذبية بين الرجال منها بين النساء، ولكنها لم تبالِ؛ فقد كانت تحبه كثيرًا، وبدا لها أنه يحبها أيضًا.

سمعت شروق صوت إسماعيل من الخارج يناديها؛ فاستيقظت من مقدمات النوم التي كادت أن تغلبها، وهبَّت واقفة، وأمسكت بوعاء

الكيراتين وهي تغوص بعينيها في اللون الوردي المتألق، وتعُبُّ بأنفها الرائحة العطرية التي تشبه النعناع. بدأ إسماعيل بغمس فرشاة صغيرة في الوعاء، استخدمها لتغطية خصلات مدام هالة بالسائل الثمين، وهو يطلب من شروق أن تُبعد الوعاء عن أنفها؛ فنوع الكيراتين الذي يُستعمل للشعر شديد التجعد يحتوي على مادة تسبب السرطان إذا تم استنشاقها على المدى الطويل؛ ولهذا فإن زبونات المحل يستعملن القناع الواقي أثناء وضع الكيراتين. لم يشترِ مسيو عادل البخيل إلا قناعًا واحدًا يُستعمل للزبونات، بينما الكوافيرات والمساعدون عليهم الاعتماد على الشبابيك المفتوحة والمراوح الكهربائية في وقاية أنفسهم. لم يمنعها تحذير إسماعيل من استنشاق الرائحة التي تعتبرها أجمل شيء مرَّ على أنفها على الإطلاق، وهي تفكر: «يا رب، لو كان ده اللي هيموتني، خليني أموت مية مرة». وتستعيد خطتها في ذهنها للمرة المليون؛ بقي أسبوع وتكتمل لديها كمية الكيراتين التي تجمعها على كميات بسيطة كل صباح، والتي يمكن أن تكفي شعرها إذا قصته، ولكنها تتمنى أن تراه طويلًا ناعمًا، وتسمع رأي محمود فيه؛ ولهذا فهي تدخر المال أيضًا، وقد أوشك ما تدخره منذ فترة، دون أن يعلم محمود، على الاكتمال، وستشتري به كمية أخرى من الكيراتين من محل الكوافير الذي تعمل به صديقتها سمر؛ عندها ستتوافر لديها كل كمية الكيراتين التي تحتاجها وتبدأ في تنفيذ الخطة. ستستأذن للانصراف مبكرًا

□□

في أحد أيام الاثنين وستذهب إلى سمر في بيتها، لتقوم بوضع الكيراتين على شعرها؛ فسمر تعمل أيضًا كوافيرة تذهب إلى البيوت، ولديها كل المعدات التي يحتاجها الأمر. سيأتي بعدها يوم الثلاثاء، وهو عطلتها الأسبوعية، ثم ستتغيب يومين بعده مُدعيةً المرض؛ لتكتمل مدة الأيام الأربعة التي يجب أن يُترك فيها الكيراتين في الشعر؛ فـ مسيو عادل لا يسمح بارتداء الحجاب في مركز التجميل؛ ولهذا فهي تضطر إلى كشف شعرها، وربما يلاحظ زملاؤها بعيونهم أو أنوفهم الخبيرة الكيراتين فيه قبل أن يُغسل. بعد ذلك ستكون الحياة وردية، مثل السائل السحري، وسيحبها محمود ويكف عن مضايقتها، وسيقول لها: "يا حياتي، يا حبيبتي" بدلًا من "يا كارتة" التي كسرت قلبها وكرامتها، وتركت بداخلها جرحًا يؤلمها على الدوام. أفاقت شروق من أفكارها على صوت إسماعيل يطلب منها تغيير وضع المروحة؛ فقد بدأ في تجفيف الكيراتين على شعر مدام هالة، والدخان المتصاعد هو الأكثر خطورة على الصحة كما يُقال.

انتهى يوم العمل المرهق، وبدأ العاملون في الانصراف، وتفقدت شروق هاتفها؛ لا مكالمات من محمود، لا يتصل أبدًا عندما يغضبها؛ قررت أن تتصل به وهي في طريقها إلى المنزل، فدائمًا ما تبدأ هي بالصلح، رغم أنها لا تكون الطرف المخطئ. ناداها مسيو عادل لتنظيف حجرة مكتبه قبل أن تنصرف؛ ففرحت وانقبض قلبها في آنٍ؛ فهو دائمًا يمنحها

obeikandl.com

بعض المال بعد أن تنتهي من التنظيف، ولكنها لا تطيق نظراته اللزجة على كل أجزاء جسدها، ومحاولاته الدائمة للمسها؛ تلك اللمسات "غير البريئة" التي يتظاهر أنها قد حدثت عن طريق المصادفة. طلبت من سامية أن تنتظرها قليلًا؛ فهي تخاف أن يتطور الأمر لأكثر من ذلك لو انفرد بها، وافقت سامية وهي تنظر إليها نظرة متفهمة؛ فكل فتاة تعمل في المركز تعرضت لهذا الموقف لمدة طالت أم قصرت. انتهت من التنظيف وخرجت بسرعة وهي تنفض ثيابها، كأنها تزيل أثر نظرات مسيو عادل ولمساته، أعطاها خمسين جنيهًا وهي تنصرف، فأحست بسعادة بالغة ونسيت تقززها من أفعاله؛ فهكذا اكتمل المبلغ، وغدًا ستأخذ كمية أكبر قليلًا من الكيراتين؛ فقد حضرت أربع زبونات اليوم لوضعه في شعورهن، ولن يلاحظ أحد النقص. لقد أوشكت الخطة على الاكتمال، وستُتِم تنفيذها الاثنين القادم.

في اليوم التالي، حصلت شروق على باقي الكيراتين، كما خططت وقضت يوم العمل على أشواك من الانتظار والترقب، حتى انتهى وخرجت للشارع. ركبت الـ(ميكروباص) في طريقها إلى البيت، وقلبها يرقص وهي تحتضن حقيبتها التي تحتوي على أملها الغالي داخل زجاجته الصغيرة. لم يردَّ محمود على اتصالاتها بالأمس، ولكن لا يهم؛ فهي تعرف أين تجده، لن تذهب إليه إلا بعد وضع الكيراتين على شعرها؛ ليراها امرأة جديدة.

□□

غاصت في كرسيها، وغرقت في حلم يقظة ترى فيه محمود وهو يتحسس شعرها الناعم، ويسكب في أذنيها كلمات الحب، حتى أفاقت على صوت الـ(ميكروباص) يتوقف حيث يجب أن تنزل. هبطت إلى الشارع وهي ما زالت تحتضن الحقيبة بحرص، عبرت الشارع في طريقها إلى منزلها، فرأت وجهًا هو آخر ما توقعت رؤيته هنا رغم شوقها إليه؛ «محمود .. ما الذي أتى به إلى هذا الشارع؟» يقع مقهاه ومنزل أسرته الذي انتقل إليه بعد مشاجرتهما بعيدًا؛ ستضطر لمصالحته الآن إذًا وإلا ثار عليها أكثر، فليكن. اقتربت منه، ولكنه لم يرَها .. لمحت فجأة الفتاة التي بجواره؛ مروة صديقة طفولتها وهي تتعلق بذراعه وتلتصق به، ثم تميل برأسها لتهمس له وتضحك في خلاعة .. توقفت شروق وقد دارت بها الدنيا، لم تكن قد أتمت عبور الطريق، وبدأ قائدو السيارات يرمقونها بنظرات غاضبة وهم يناورون لتفاديها، ولكنها لم تشعر بما يدور حولها؛ ظلت تنظر إلى محمود ومروة ببلاهة دون أن يرياها وقد فقدت النطق والحركة. سقطت الحقيبة من بين يديها على الأرض، ليمر فوقها أتوبيس مزدحم ويتركها على أسفلت الطريق جلدًا ممزقًا ممتزجًا بـ"سائل وردي" قد فقد عطره.

***

obeikandl.com

فودو

التقيتُ به في شارعنا المشترك، وأنا أفتح باب سيارتي استعدادًا للرحيل، بينما كان هو قد بدأ يتحرك بسيارته؛ بما يعني أنه سيسبقني ببضع دقائق في الوصول إلى العمل، حييته بفتور وأنا أدخل السيارة؛ فهذا هو اليوم الذي لا أحب رؤيته فيه؛ يوم الاثنين، انطلقتُ مسرعًا محاولًا طرده من خاطري؛ فهبطت عليَّ صورتكِ كما رأيتكِ بالأمس.

كنت أسير في الممرات ضجرًا بعد اجتماع طال بلا سبب واضح، عندما هبَّت عليَّ رائحة عطرة، لم أكن قد بدأت التساؤل عن مصدرها عندما اقتحمني وجودكِ العبقري؛ أجل، أنتِ بذاتكِ، أنتِ من ترافقني صورتها في حِلي وترحالي منذ شهور طويلة، من أنام على صوتها العذب وأصحو على بريق عينيها الأخاذ، ناديتِ اسمي؛ فاستمعتُ متلذذًا: رااامي .. استكان قلبي مع لثغة الراء الخفيفة، قذفته الألف الممدودة إلى سماء السعادة لتتلقاه الميم والياء مهدهدتين ليعود إلى صدري منتشيًا. مددتِ يدكِ

مُسلِّمةً، فمددتُ يدًا مرتعشة ترغب في الانسحاب؛ فأنا يا آنستي لا أقوى على لمس يديكِ وما يفعله بي. رفعتُ عينيَّ بحذر محاولًا إخفاء اضطرابي لتلتقيا بعينيكِ الجميلتين في غفلة من حراسهما؛ الجفون، فحدجتِني بنظرة ثابتة بينما قلبي يمور ويضطرم وتوشك ساقاي ألا تحملاني. أطرقتُ إلى الأرض محاولًا أن أهدأ، فسألتِ، كأنك تأبين إراحتي ولو لثوانٍ، إن كنت قد علمت أنكِ كنتِ مريضة ولماذا لم أسأل عنكِ؛ تمتمتُ بكلمات الاعتذار والادعاء بعدم المعرفة، بينما أنا قد عرفتُ، واطمئننتُ من بعيد أنكِ قد شُفيتِ؛ كنتُ أحاول أن أبتعد؛ محاولة استمرت ليومين حتى قابلتكِ بالأمس، ففشلت، مثل محاولات عديدة سبقتها.

تنهدتُ بحزن وأنا أنعطف بالسيارة المنعطف الأخير في الطريق إلى الشركة وأتخيل اجتماعنا القادم لا محالة بعد أقل من نصف ساعة؛ تُرى ماذا ترتدين اليوم؛ الثوب الملون بالأخضر والأزرق الذي يبرز بشرتكِ الناعمة، أم الثوب البرتقالي الذي يجعل العسل الدافئ في عينيكِ يتألق، أو ربما ثوبًا جديدًا تدكين به آخر حصون مقاومتي؟ خرجتُ من المصعد ودخلتُ إلى مكتبي مسرعًا لأعد الأوراق التي أحتاجها في اجتماعنا

obeikandl.com

الأسبوعي معًا؛ أنتِ وحسام وأنا، لم أعرف أبدًا من الذي خرج بفكرة جمعنا نحن الثلاثة في اجتماع واحد، وإن كنتُ في معظم الوقت أتخيل أنه أنتِ؛ لتتمتعي برؤيتنا نتنافس على نظرة أو كلمة منكِ، أي عبث وضعنا في هذا الموقف؟ أي فرعون لعننا بلعنته؟، أي ساحر "فودو"[1] يستمتع بوخز دمانا من مكان خفي؟

تركتُ كوب الشاي ولم أكمل نصفه، وحملتُ أوراقي مسرعًا إلى مكتبكِ لأطرق الباب وأنتظر سماع كلمتكِ المنغمة: ادخل، التي دخلتُ قبل نهايتها، ها أنتِ ذي وها هو يجلس معكِ إلى طاولة الإجتماعات، تمامًا كما توقعت. ألقيتُ تحية الصباح وأنا أتخذ مكاني بجواره وأحييه بربتة على كتفه كما تعودت، ليرد بوخزة من سبابته على كتفي كما تعوَّد. بدأ الاجتماع وحسام يعرض الأعمال التي سيحتاج فيها إلى معونتي ومعونتكِ خلال الأسبوع القادم، وأنا أهز رأسي موافقًا دون تركيز، مسترخيًا تحت ستائر شعركِ اللامع الذي يلفحني من بعيد بعطر له رائحة النعناع، أتأمل الثوب الوردي الرقيق؛ ليس جديدًا ولكنه دك حصون مقاومتي. انتهى حسام من الكلام وجاء دوركِ فصمتنا نستمع وأنا أراقب نظرته الممتدة إلى أناملكِ الطويلة وأظافرك الوردية، ثم ألمح ذلك العِرق ينبض في صدغه واشيًا بانفعاله؛ سمة

---

(١) "الفودو": ديانة إفريقية قديمة تتميز بممارسة نوع من السحر الأسود يقوم فيه الساحر بصناعة دُمى تمثل الأشخاص الذين يريد أن يسحرهم ثم يخز الدُمى بالدبابيس للتحكم فيها.

obeikandl.com

فيه منذ مراهقته التي أعرفه قبلها بكثير. انتهى الاجتماع وحان وقت الثرثرة في كل شيء لبعض الوقت قبل أن ننصرف من مكتبكِ؛ تحدث حسام عن حفل الباليه الذي حضره بالأمس؛ يحاول جذب اهتمامكِ لمعرفته أنكِ تحبين الباليه، دون أن يدري أني شاهدت خياله من خلف ستار نافذته مساء أمس وهو يعمل على (اللاب توب) لساعات، لم أتمكن من إيقاف إصبعي قبل أن تطرق صينية القهوة؛ حركة تشي بغضبي يعرفها حسام كما يعرف الكثير عني. تراجعتُ في مقعدي أراقبكِ غير مهتم بالمشاركة في الحديث وقد أسرتني الشعيرات القليلة التي أفلتت من مشبك شعرك لتنسدل على خدكِ الوردي؛ لمحت نظرته إليَّ، ثم هزة ساقه العصبية وقد بدأت أستمتع بإغاظته، سألتِني لِـمَ لا أتكلم، ومنحتِني نظرة ناعمة؛ فازدادت هزات ساقه، حتى عدتِ ومنحتِه نفس النظرة الناعمة مع سؤال عن شيء لم أنتبه له؛ فهدأت ساقه وأحسستُ بتنهيدة الراحة التي كبتها داخل صدره.

مرَّ الوقت وحان وقت الانصراف لأؤنب نفسي، كما أفعل بعد كل اجتماع، وأقرر أني يجب أن أبتعد، أن أفلت من براثنكِ ولو إكرامًا لصديق عمري الذي خرجت معه وكلانا يحاول إنكار المناورات غير المعلنة التي حدثت، وستحدث، في تلك الغرفة صباح كل اثنين. أمسك حسام بذراعي وسألنى أن أتناول القهوة معه فى مكتبه؛ فاستجبت، و قد قررت تأجيل قراري بالابتعاد حتى أقتحم غرفة نومكِ، و أُخرج دُمى "الفودو" الموخوزة بالدبابيس من تحت فراشكِ.

***

منـاورة

لم يخطر ببالي وأنا أخطو إلى حديقة النادي أن حكاية من حكايات العمر على وشك أن تبدأ.

صعدتُ درجتَي السلم الرخاميتين وكدت أن أتجه لأجلس مع صديقاتي لولا أن لمحتكَ؛ فحييتهن بإشارة من يدي واتجهت لأجلس على مقعد مجاور لمقعدك في ذلك الركن البعيد؛ لم أبالِ بهمسات صديقاتي أو ضحكاتهن؛ فقد صعقني جمالكَ حتى كدت لا أبصر غيركَ.

رفعت رأسك من إطراقته الطويلة وصوبت نحوي نظرة لا مبالية؛ وهل يبالي من كان مثلك بمن كانت مثلي؟ غرقتُ في تلك الزرقة الرائعة داخل الحدقتين، حتى أغمضتهما فجأة؛ فألقيتني خارج اليم على غير توقُّع. مددت ساقيك القويتين عن آخرهما، واعتدلت في جلستك

obeikandl.com

لتواجهني لأول مرة .. شكرًا لك؛ فهكذا أحظى برؤية أفضل للوجه الأبيض القمري والشعر الأسود الفاتن الذي يتطاير حول رأسك.

عدَّلت من وضع يديك وقد ثبَّت نظرتك عليَّ؛ هل ألمح في عينيك شيئًا كالاهتمام؟ اهتز الشارب الذي يجمع بين البياض والسواد؛ مهتمٌ أنت بلا شك، يا لسعادتي غير المنتظرة! علا رنين هاتفي؛ إحدى صديقاتي من ركن الحديقة الآخر تستعجلني، لم أردَّ، بل وأُغلق الهاتف كليةً؛ فهناك الآن ما هو أهم .. أنت.

تراجعتُ في مقعدي أنتظر أن تفعل شيئًا؛ أي شيء، يؤكد اهتمامك .. لا شيء؛ إذًا فأنا أيضًا لن أفعل شيئًا سوى الانتظار. آه من أبناء جنسك وعنادهم، آه من كبريائك هذه السخيفة. طال الانتظار؛ فلتفعل شيئًا يا سيدي أو سأنصرف، أستطيع أن أبدأ أنا بالفعل، ولكن عقلية أبناء جنسك المركبة قد لا يعجبها ذلك، بل ربما تفر مني. أمد يدي إلى حقيبتي و قد هممت بالقيام؛ فتحركت من مكانك، قمت من مقعدك وقد نفضت النظرة الساكنة لتحل محلها نظرة اهتمام خالصة وأنت تتحرك مقتربًا؛ إذًا فأنت تنتوي فعل شيء، اقتربت أكثر فأكثر حتى كادت المسافة بيننا أن تتلاشى، كنت أطمع في مجرد الاقتراب ولكن الآن يبدو أن تلامسًا يوشك أن يحدث. وقفت منتظرة ما ستفعله وقد غمرتني البهجة؛ إذًا فقد كان تحفظك السابق مجرد مناورة، هكذا تعودت من أبناء جنسك، ولكن

لا أدري لِـمَ لَـم أتوقع ذلك منكَ أنت. توقفت على مسافة ملليمترات مني وقد تلاقت نظراتنا؛ هل تنتظر أن أبدأ أنا، حسنًا سأبدأ؛ فقد مللت الانتظار. تحسست شعرك الناعم غير مبالية بالنظرات المحيطة بي، التقطتك ثم جلست على مقعدي ثانيةً وجسدك الصغير على حجري يطلق هريرًا ناعمًا، ملَّست فراءك الأبيض والأسود فرددت عليَّ بـ"مياو" طويلة ناعمة، قبل أن أحملك وأقوم وأنا أضعك في حقيبتي تاركةً رأسك الجميل فقط خارجًا كي تتنفس، وأنت تودع حديقة النادى بـ "مياو" أخرى حادة في طريقنا إلى البيت.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

حكاية موت غير معلن

لماذا غبتِ بالأمس؟

أردت أن أهتف بكِ فور أن رأيتكِ من نافذة حجرة الموسيقى الصغيرة تقودين أطفال فصلكِ إلى الباحة المستديرة المزروعة بالحشائش. حرمتِني حتى الرؤية المجردة؛ غبتِ فشحبت الشمس، وذهب النسيم، وتهدلت أغصان الشجرة الكبيرة أمام مدخل المدرسة في حزن.

خرجتُ مسرعًا أحييك بإشارة من يدي وأجلس على الكرسي أمام الباب وقد مددت ساقيَّ في البقعة المشمسة، أتأملك تتحركين كفراشة والأطفال يجرون خلفكِ في حلقة، يتطاير غطاء رأسكِ الفيروزي في الهواء فترفعين إصبعًا رشيقة لتثبتيه؛ يا ليت لي حظوة الدبوس ذي الرأس اللامع الذي يثبت غطاء رأسكِ، يا ليت لي حظوة سوارِكِ الفضي الذي يُقبِّل معصمكِ ألف مرة كل يوم، أو هذا الخاتم بخنصركِ؛ هذا المكتوب اسمه بداخله؛ "علاء" .. وضعتُ يدي على قلبي؛ لعل الألم يهدأ، ولكن هيهات.

obeikandl.com

لماذا غبتِ بالأمس؟ لا بد أنك تشترين احتياجاتكِ استعدادًا للزفاف. ضغطت يدي على قلبي أكثر وأكثر حتى قطع أفكاري مجيئه؛ آخر من أحتاج إلى رؤيته الآن، ولكنه جاء. ربَّت على كتفكِ مُسلِّمًا؛ فَغَضَت بصري إلى الأرض وعَضَت على أسناني، ثم أتى إليَّ واحتضنني بقوة حتى آلمتني عظامي المتداعية:

- خالد، إزيك يا حبيبي، واحشني.

ثم جلس بجواري وهو يمد ساقيه في البقعة المشمسة؛ حتى هذه ينازعني عليها.

رأيتكِ من بعيد توزعين قطعًا من الحلوى مكافأةً للأطفال، ثم اقتربتِ وقدَّمتِ لنا منها؛ فلجلوسه معي ميزة وحيدة؛ أنك تقتربين منا أحيانًا .. أسكرتني رائحة الفل في عطركِ الذي اسمه **J'adore**، ويعني أعشقك، وأنا بالفعل أعشقكِ؛ بل أكثر من ذلك بكثير .. أعرف العطر تمام المعرفة؛ فقد اشتريته بنفسي وقدمته إليه ليهديه إليكِ؛ فهو صديقي .. وهكذا اشتريت أنا العطر له، وأنتِ وضعته من أجله، وشممته أنا؛ فاكتمل المثلث.

قمت لأنصرف أنا أيضًا وأُلقى نظرة وداعية على المدرسة التي لن أراها ثانيةً، دخلت حجرة (مستر محمد) المدير لأسلمه مظروفًا من والدي؛ فقام منتفضًا من مقعده:

□□

خالد بيه، أهلًا أهل...

نظرتي الباترة أوقفت سيل الكلمات الترحيبية؛ فقد يسمعه أحد. تنحنح بخجل وهو يكمل ببرود مصطنع:

أهلًا يا مستر خالد.

فسلمته المظروف، وخرجت لأمرَّ تحت شجرة البونسيانا في مدخل المدرسة وأتذكركِ وأنتِ تقفين تحتها حين رأيتكِ لأول مرة تنتظرين (الباص) ليقلكِ مع الأطفال في رحلة لم أعرف إلى أين .. حيَّاكِ أبي وزميلاتكِ في طريقه داخلًا، بينما أنا أنتظر في السيارة لأسمع صوتكِ العذب يتساءل من هذا الرجل، وصوت زميلاتكِ ينهرنك أنتِ الجديدة الساذجة التي لا تعرف مالك المدرسة .. هل هو صوتك الرائق المترجرج المفعم بالطفولة والأنوثة في ذات الوقت؟ هل هما عيناكِ بلونهما الرمادي المائل إلى الأزرق، أو لعله الأزرق المائل إلى الرمادي؟ هل هو الجبين الوضاء، أم الخدان الرائعان، أم هذه البنصر التي كانت حتى وقتها خالية من الخاتم المعهود؟ لا أعرف؛ شيء ما جعلني أتخذ قراري الذي أعلنته لأبي فور عودته إلى السيارة، وأنا أدير ظهري للنافذة حتى لا يحفظ أحد ملامحي؛ فقد نويت أن أعود غدًا بشخصية جديدة: (مستر خالد) مدرس الموسيقى. لم يفهم أبي لماذا أريد أن أفعل ذلك وقد عدت لتوي من رحلة

obeikandl.com

استجمام في باريس أنا وأخي صلاح؛ تفهمت ثورته وهو يصيح بي:

– يا ابني إهدا بقى واعقل، إنت عدت عليك أيام صعبة بس خلصت خلاص، ارجع بقى ساعدني في شركاتي وشوف ورثك مع أخوك.

كان صعبًا أن أشرح له؛ فاكتفيت بالقول:

يا بابا ما حدش عارف مين هيورث مين.

ثم وعدته بأنها ستكون فترة قصيرة؛ نعم يا أبي أقسم لك، كل ما بقي هو فترة قصيرة. وقد كان؛ أصبحت (مستر خالد) الذي يجلس في الشمس يراقب أطفال فصلكِ يلعبون، ويغني معهم أغاني الأطفال في حصة الموسيقى. غيرت ملابسي وتسريحة شعري ونظارتي، تنازلت عن كل شيء غالٍ قد يشي بأني أكثر من مدرس موسيقى من عائلة بسيطة، طلبت من سائقي أن ينتظرني قُرب مول تجاري شهير بعيد عن المدرسة، كنت أستقل أحد الباصات يوميًّا لأذهب إليه؛ فقواي البائدة لا تسمح بمشي كل تلك المسافة.

وهو،؛ مستر علاء مدرس الرياضيات بالقسم الأمريكي بالمدرسة، صادقني وصار يأتي ليجلس معي كل يوم في البقعة المشمسة، يرقبكِ بعين المحب؛ ومن أفضل مني أنا ليفهم ذلك؛ خالد ابن العائلة الكبيرة، خريج الجامعات الأمريكية الذي عاش في بلدان كثيرة، صاحب

obeikandl.com

الجولات العديدة مع نساء جميلات من كل الجنسيات .. أحبكِ هو وأنتِ فهمتِ ولم تحبيه، ولم تفهمي أني أحببتك، فخبرتي جعلتني أخفي ذلك جيدًا. لاحظت حبه لكِ؛ فشجعته وزينتكِ في عينيه حتى تقدم لخطبتكِ ووافقتِ. كان يحكي لي كثيرًا من التفاصيل التي مزقتني غيرةً. شجعته على إتمام الزفاف بسرعة، وعندما احتاج إلى المال لم أتردد؛ أقرضته مبلغًا كبيرًا، قلت إني كنت أدخر المبلغ لأتزوج من فتاه أحببتها ولكن الخطبة فشلت ولا أحتاجه الآن. تتساءلين لِـمَ فعلت ذلك؟

بالطبع لا تتساءلين؛ فأنتِ لا تعلمين شيئًا عن كل ذلك، ولن أسمح أن تعلمي؛ فقلبك الصغير هذا لا يستحق سوى السعادة، ولن أسمح للألم أن يلمسه بسببي .. حسنًا، لِـمَ فعلت ذلك؟ هذه معضلة شكسبيرية؛ لنقل إني:

أردت لكِ رجلًا بقي له في الحياة أكثر من بضعة شهور ليعيشها معكِ..

أردت لكِ رجلًا لم تأكل اللوكيميا وعلاجاتها جسده؛ حتى يستطيع أن يمنحكِ طفلًا تسعدين به..

أردت لكِ رجلًا لا تقضين أوقاتكِ معه بين عيادات الأطباء أو في غرف المستشفيات الباردة..

هل هذه الأسباب كافية أم عليَّ أن أكمل؟ قد لا تكفي ولكني لن

orderkandil.com

أكمل؛ فقد وصل التاكسي إلى مكان سيارتي .. نزلتُ وطلبت من سائقي أن يتجه إلى المستشفى؛ فنظر إليَّ منزعجًا؛ ظن أني قد شُفيت كما ظن أبي وكل من يعرفني باستثناء أخي صلاح. اتصلت بأبي لأخبره أني سأرسل إليه سائقي لإحضاره عندي في المساء وأن صلاح سيحضر بمفرده؛ فهو يعلم أين سأكون. حان الوقت لإخبار أبي الطيب بالحقيقة التي أخفيناها منذ شهور؛ فرحلة باريس لم تكن للاستجمام وإنما للخضوع لعلاج تجريبي بعد فشل كل العلاجات المتوافرة في مصر. لم ينجح العلاج، وبصراحة هؤلاء القوم المعهودة نصحني الطبيب بالعودة للموت في بلدي مُقدرًا ما بقي لي من عمر بستة أشهر، كادت تنتهي. تحيرنا أنا وصلاح في متى وكيف نخبر أبي، حتى استسلمنا، سنخبره وحسب؛ فهو مؤمن وسيتعامل مع الوضع أفضل منا.

وأنتِ يا آنستي، يا من خبرتُ نساء الدنيا فلم أحب سواكِ، ستتزوجين بعد أسبوعين ولن أحضر زفافكِ، رغم أني مدعو بالطبع؛ فقد يكون زفافي أنا قد سبقه إلى القبر .. وحتى لو لم يكن ذلك قد حدث، فالموقف أقوى من تحملي، ولكن إن كنت حيًّا فستصلكما هديتي وعندما أموت سيصلكما خطاب مع صلاح، أتمنى لكما فيه السعادة، وأخبر علاء أن يعتبر المبلغ الذي اقترضه مني هدية لكما ولا يعيده للورثة، وأتمنى منكما شيئًا ليس ملزمًا ولكن ليتكما تقومان به؛ إذا رزقكما الله بولد أن

obeikandl.com

تسمياه خالدًا .. لا أعلم لماذا أرغب في ذلك، ولا لماذا رغبت في العمل في المدرسة وقضاء شهوري الأخيرة بالقرب منكِ؛ إنها الأمنيات الأخيرة لرجل محتضر، فهل تستجيبان لآخر رغباتي؟

***

obeikandl.com

obeikandl.com

الخطة باء

كانت هدى تستضيف صديقتيها سحر ومنال حول حمام السباحة في فيللتها الأنيقة – شيء فعلته كثيرًا من قبل – حين طلبها زوجها غالب على الهاتف، ففعلت شيئًا لم تفعله من قبل؛ نسيت أن تضغط زر إنهاء المكالمة، هو أيضًا فعل شيئًا لم يفعله من قبل؛ استمع إلى حديثها مع صديقاتها لدقائق قليلة، وليته ما فعل؛ فقد سمع ما اهتز له شاربه الصعيدي الكث الذي لم تفلح كل توسلاتها في جعله يتخلى عنه طيلة ثلاثين عامًا هي عمر زواجهما.

ما سمعه غالب كان سببًا في جعله ينزل من الدور الثاني بالفيللا حيث كان يكلمها في الهاتف منذ قليل، إلى مستوى البدروم حيث يقع حمام السباحة، ليطرق الباب وينادي عليها قائلًا:

– ممكن أدخل؟

سمعته بصعوبة في لحظة صمت بين الضحكات الصاخبة، فردت باستغراب:

□□

لأ مش ممكن، جرالك إيه؟

فقال بخجل:

- طيب ناوليني الشيشة وباقي العدة من عندك.

أدى ما قام به غالب المفعول الذي أراده بالضبط؛ انصرفت الصديقتان وقد شعرتا أن الحفلة قد انتهت مبكرًا، وصعدت هي تزفر في ضيق:

- يعني حبكت معاك الشيشة دلوقت؟

فرد بغيظ وهو يتأمل جسدها الرشيق في المايوه الأسود، والذي لا يعطي أي إيحاء بعمرها الحقيقي:

- أيوه حبكت، إيه حكاية جوني ديب بقى يا هانم؟

جوني ديب! صمتت وهي تتذكر بدهشة .. كانت صديقتها منال المرحة تحكي مازحةً أنها ذهبت لطبيب يشبه الممثل جوني ديب، وكيف سرحت في عيونه وشعره و ... مع كثير من المبالغات المضحكة؛ فردت سحر:

- والنبي فلقتينا إنتي وجوني زفت بتاعك ده، اسكتي شوية.

ولكن هدى قالت ضاحكةً:

- لأ عندها حق يا سحر؛ ده أنا لو رحت لدكتور وطلع جوني ديب أو حتى واحد شبهه، أكيد هيغمى عليا حتى قبل ما يبتدي الكشف.

obeikandl.com

ثم ضحكت ضحكتها الطويلة المطوطة التي لا تعطي فرصة لمعرفة إن كانت جادة أم هازلة.

عادت هدى إلى الواقع تحدق إلى وجه غالب الأسمر وشاربه الصعيدي المرتعش الذي أحست في هذه اللحظة أنه أكثر شيء تكرهه في هذه الدنيا، وتكلمت بعد طول صمت:

- بقى كدة يا غالب، بتتجسس عليا أنا وصاحباتي.

رد بحنق:

- يا ستي ولا بتجسس ولا نيلة؛ إنتي نسيتي تقفلي الموبايل لما كلمتك وربنا خلاني أسمع المسخرة بتاعتك إنتي وصاحباتك.

ردت وقد بدأ الغضب يتملكها:

- ده ما يديكش حق إنك تسمع كلامنا، وبعدين إحنا كنا بنهزر يا أخي، ما ياما إنت وصحابك بتهزروا على الستات، ولا حلال ليك حرام عليا.

فأكمل غير عابئ بدفاعها:

- ستات ناقصين أدب صحيح، أمال لو ما كنتوش كلكم معاكم دكتوراه وخبيرات في البنك الدولي قد الدنيا وجدات ما شاء الله عليكم، قال جوني ديب قال، عجوز متصابية صحيح، وبعدين بيسين إيه ومايوهات إيه يا هانم احترمي سنك بقى.

□□

ردت وقد بدأ الألم يغزو حلقها منذرًا بانهيار الدموع:

- احترم إنت نفسك يا غالب؛ دي كانت حفلة ستات في بيتي والبيسين متغطي كويس، وإنت عارف إني محجبة وأعرف ربنا أحسن منك، كفاية بقى لو سمحت.

انتهى النقاش ولم ينته الموضوع بالنسبة إلى هدى، فقد قررت فورًا أن تضع الخطة "باء" قيد التنفيذ. لم تعرف عندما رسمت الخطة وأحكمت وضعها إن كانت ستنفذها، ومتى؛ فهكذا كل خطة تحمل هذا الاسم "باء". فالخطة "باء" هي الخطة البديلة التي يتم اللجوء إليها عندما تفشل الخطة الأصلية، كما يحدث دائماً في أفلام الأكشن الأمريكية التي تعشقها هدى عندما تتعقد الأمور ويبدو أن كل شيء على وشك الضياع، فيقول أحد الممثلين لزميله:

- لنتحول إلى الخطة باء.

فيرد زميله:

- لا يوجد لدينا الخطة باء؛ لدينا الخطة ألف فقط.

ولكن هدى بعكس هذه الأفلام كان لديها الخطة باء، مرسومة بإتقان ومنذ سنوات عديدة.

□□

استيقظت هدى في الفجر وخرجت من حجرة النوم على أطراف أصابعها، ارتدت ملابسها في حجرة أخرى تستعملها لهذا الغرض كل يوم حتى لا توقظ غالبًا الذي تقاعد عن العمل وصار يستيقظ متأخرًا، حملت حقيبة صغيرة فيها مستلزماتها الضرورية و(اللاب توب) الخاص بها وانطلقت إلى فيللتها في الساحل الشمالي؛ فهذه أول خطوة في الخطة "باء".

قادت السيارة بحذر في ضوء الفجر الخفيف وهي تتذكر رحلة حياتها مع غالب .. رآها لأول مرة في فرع البنك الدولي الذي كانت تعمل به بأحد العواصم الأوربية، وكان هو قد انتقل إليه حديثًا بعد حصوله على الدكتوراه من إحدى الجامعات بتلك الدولة. خدعه شعرها الأشقرالمصبوغ بإتقان وقتها وفرنسيتها الرشيقة التي كانت تجري بها حديثًا مع أحد الزملاء؛ فرقص شاربه الصعيدي ظنًّا منه أنها أوربية يستطيع أن يقيم معها علاقة عابرة؛ فقد كان زير نساء من المشهورين. اندفع الدم في وجهه واندفع هو يتحدث إليها بفرنسية مضحكة لم تملك معها سوى أن ترد باللهجة المصرية:

– ليه بس كده ما الطيب أحسن.

وهكذا بدأت حكايتها مع غالب .. أحبها وأحبته، وتزوجا رغم اعتراض العائلتين؛ عائلته الصعيدية التي تملك مئات الأفدنة في بلدتهم بسوهاج، وعائلتها القاهرية الغنية التي تنحدر من أصول تركية، ولكن

obeikandl.com

كان لهما من قوة الشخصية ما تمكنا به من جعل العائلتين توافقان على مضض. توقفت هدى على جانب الطريق لتجري مكالمة هاتفية في محاولة للهروب من أسر الذكريات؛ فهكذا تقضي الخطة "باء"؛ ألا تسمح للذكريات بأن تضعفها وتحولها عن قرارها، وهي خبيرة التخطيط بالبنك الدولي؛ أجدر الناس باتباع الخطط خاصةً تلك التي رسمتها بنفسها.

بدأت هدى في رسم الخطة "باء" بعد خلاف تافه مع غالب أسمعها فيه كلامًا غليظًا ثم لم يحاول بعده أن يصالحها كعادته؛ بل تجاهل الأمر وتصرف بطريقة عادية وكأن شيئًا لم يكن، يومها نامت وهي تبكي من القهر وتتمنى لو يسمع بكاءها ويحتضنها، ولكنه لم يفعل؛ وهكذا كان عليها أن تحتضن الوسادة، وتحلم لباقي الليل باليوم الذي ستكبر فيه بناتها ويتزوجن، وتستطيع وقتها أن تطلب الطلاق من غالب أو أن تخلعه إن رفض، دون أن تخشى من تأثير ذلك على مستقبل البنات. تكررت الخلافات التافهة والكبيرة، وبدا أن غالبًا قد قرر ألا يصالحها أبدًا، هي أيضًا قررت ألا تصالحه، ولم تعد بحاجة لأن يحتضنها بعد الخلافات بل تركت ذلك لأوقات أخرى .. صارت الخطة "باء" كاملة متكاملة في ذهنها، وضعها عقلها العلمي في صورة خطوات؛ تبدأ بترك البيت، ثم تجاهُل الذكريات ومحوها، ثم طلب الطلاق أو الخلع، وربما الزواج بآخر بعد ذلك إذا لاحت إمكانيته في الأفق.

□□

شغلت هدى نفسها على مدى السنوات بعملها وقضاء الوقت مع غالب؛ فقد كانت علاقتها به طيبة باستثناء الخلافات التي يهملها بعدها وكلماته القاسية خلالها، لكنها كانت دائماً تأخذ في الحسبان احتمال اضطرارها إلى تنفيذ الخطة "باء" في أحد الأيام؛ فعملت على تجهيز عدة أماكن خاصة بها للعيش فيها إذا حدث ذلك، وحرصت على ألا يكون هناك أملاك مشتركة بينهما، ولم يأبه هو لذلك، بل كان يحافظ على مالها؛ فهو يحبها ويخاف عليها بلا شك، فقط لو يعطيها بعض الحنان.

أهم ما شغلت هدى نفسها به، وأثار اعتراض غالب الظاهري وتأييده السري هو جمالها؛ فقد كانت تهتم بجمالها ورشاقتها، وتتردد على عيادات التجميل لحقن (البوتوكس) وإجراء العمليات، وتمارس الرياضة؛ حتى صارت تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بخمسة عشر عامًا على الأقل، وصارت تطرب كثيرًا عندما يراها الناس مع بناتها ويظنون أنها أختهن الكبرى، أو يظنون أنها تصغر زوجها بفارق كبيرجدًّا بينما الفارق بينهما عشرسنوات لا أكثر. لم يكن الموضوع مثار خلاف كبير حتى أحيل غالب إلى التقاعد من البنك الدولي وقرر فجأة أن يترشح لعضوية مجلس الشعب، وهو الشيء الذي لم ترَ هدى له ضرورة، لكنها لم تعترض إلا عندما صار مطلوبًا منها أن تفعل أشياء كثيرة لم تحبها لأنها لم تفهمها؛ لم تفهم لماذا صارت طريقتها في ارتداء الحجاب فجأة غير مقبولة ولا تلائم سنها، ولماذا

obeikandi.com

يجب أن ترتدي العباءة والخمار الأسود عندما تذهب إلى بلدته في الصعيد، ولماذا يجب ألا تُظهر شعرها المصبوغ بالأحمر أمام النساء هناك وإن صممت فلتصبغه بالأسود فالأحمر لا يليق بجدة، وعندما ترد بأنها جدة منذ سنوات وقد رأت النساء شعرها ورأى كل الناس حجابها، يقول لها إن هؤلاء الآن أصبحوا ناخبين ويجب أن نفعل ما يرضيهم؛ فترد بأن هذا نفاق، وأنها تهتم بإرضاء الله لا الناس، لكنها تفعل كما يريد على مضض.

حتى جاء الموقف الذي تسبب بتفعيل الخطة "باء"؛ موقف جوني ديب .. ضحكت هدى ضحكة مريرة وهي تركل رمال الشاطئ أثناء جلوسها على مقعد في حديقة فيللتها بالساحل الشمالي؛ لقد تمتعت بالحياة مع غالب لعقود تحملت فيها عصبيته وسوء تقديره وأحيانًا عقليته المتزمتة، ولكنه بالأمس دعاها عجوزًا متصابية، وهي ليست كذلك، بالتأكيد ليست كذلك؛ لا أحد يدعوها بهذا اللقب، فهي لا تنكر عمرها، وإن كانت هذه الفئة العمرية تسمى لغويًا "عجوزًا" فلا بأس؛ هي إذًا عجوز، ولكنها ليست متصابية؛ فهي لم تَدَّعِ أبدًا أنها صغيرة في السن، ولم تنكر عمرها، ولم تطلب من بناتها مثلًا ألا يقلن لها "يا ماما"، ولم تطلب من أحفادها ألا ينادوها: "يا أنَّا"، كل ما تفعله هو أنها تحاول أن تبدو بشكل جميل وتحافظ على هيئتها بدون أن تضر أحدًا أو تُغضب الله، فماذا يريد منها غالب أن تفعل؛ أن تتبع مقاييس المجتمع فيما يجب أن تفعل

وألا تفعل جدة مثلها، أن تجلس ساكنة تنتظر الموت؛ فليمت هو إذًا، من حياتها على الأقل؛ فقد تم تفعيل الخطة "باء".

قامت هدى تمشي حول الفيللا لتدفع الدم في جسدها وهي تفكر أنها ستقتلع أشجار الجهنمية التي في الحديقة كجزء من خطة محو الذكريات؛ لأن غالب هو الذي زرعها، حينها لمحت السيارة الزرقاء المعهودة تدرج في الممر مقتربة منها؛ هل جاء وراءها؟ لم تظن أبدًا أنه سيفعل؛ منذ زمن لم يصالحها بعد خلاف، لا بد إذًا أنه سيتظاهر أن شيئًا لم يحدث ويقتلها غيظًا.

أوقف السيارة واقترب منها، فعقدت ذراعيها على صدرها في تحدٍّ. التقت نظراتهما للحظة خاطفة، فأشاحت بوجهها وهي تفكر أن جزئية محو الذكريات من الخطة "باء" قد فشلت فشلًا ذريعًا. مد يده إليها بكيس أنيق من الورق المقوى يحمل اسم المحل الذي مرَّا عليه منذ أيام ثلاثة، يبرز من داخله طرف ذلك الثوب الذي أعجبها وقتها فقال لها:

- تعالي أجيبهولك.

فردت:

- لأ ده عيالي قوي عليا.

فقال ثانيةً:

□□

- أبدًا والله؛ ما أنتِ زي القمر أهوه.

ولكنها صممت على الرفض.

رفعت رأسها وهي تقاوم الدموع؛ فقال بصوت متعثر:

- أنا آسف يا هدهد، إنتي عارفة وأنا قلتلك قبل كده إن فيه حاجات كثير بتعمليها لما بأحسبها وأوزنها مش بألاقي فيها أي حاجة غلط، بس إنتي عارفة بقى العقلية الذكورية والعرق الصعيدي والكلام ده كله، سامحيني، أوكى؟ على فكرة أنا لغيت موضوع مجلس الشعب، إنت عندك حق.

قال كلمته الأخيرة وهو يحضنها حضنًا خفيفًا أحست معه بتهدج أنفاسه، وعانت لتخفي انفعالها وهي تودع الخطة "باء" إلى مثواها الأخير.

***

obeikandl.com

ساعة الصفر

لا أعرف لماذا يبدو الطريق اليوم مختلفًا، رغم أني قطعته مئات المرات خلال الشهور الماضية، حتى حفظت كل ورقة شجر، وكل حفرة، وكل حصاة فيه.

هل هي دقات قلبي التي لا تزال تعلو وتعلو حتى لأخشى أن يسمعها السائق في المقعد الأمامي؟ هل هي تلك السحابة الغائمة التي تتحرك معنا كأنها تكتم دموعها حزنًا على ما سيحدث بعد ساعات؟ أم لعلها الوردة الحمراء الجميلة التي أحملها لكي أهديها لكَ، نعم، لك أنت؛ فما زلت حبيبي، برغم ما حدث ما زلت حبيبي، وسأهديك الوردة الحمراء حتى لو لم تردها، بل وحتى لو لم تعلم عنها شيئًا.

أخرجني صوت السائق من تأملاتي لينبهني أننا قد وصلنا، خرجت من السيارة بخطى متعثرة وأنا أخفي الوردة في حقيبتي الكبيرة، سلمت على

obeikandl.com

موظفي الاستقبال في طريقي إلى غرفتك فردوا السلام بإشفاق وترحاب يتناسب مع الصداقة التي عقدتها معهم لطول ترددي على المكان، دخلت وألقيت السلام متأملةً وجهك القمحي البيضاوي الوسيم الذي أطاح بعقلي ذات يوم؛ فلم ترد، طبعًا لم ترد، وهل يستطيع مثلك أن يرد على مثلي؟ كيف حالك اليوم؟ أوحشتني كثيرًا، حالك مثل كل يوم، حسنًا، هذا ما توقعته.

لديَّ ما أطلعك عليه اليوم؛ فأنا سأضطر إلى الزواج، نعم، أنا آسفة ولكن هذا هو الوضع؛ فالنساء يحتجن إلى الرجال، هذا ما علمته أنت لي، أليس كذلك؟ فقد كنت طفلة غريرة حين عرفتك، والآن يجب أن أتزوج، هل تريد أن تعرف ممن؟ لست مهتمًّا، ولكني يجب أن أخبرك، إنه أخوك هشام؛ فقد اتفق أبي وأبوك على ذلك بالأمس، سمعتهما دون أن يشعرا وهما يتكلمان عن شركاتهما المشتركة و...، أنت تعرف هذا الهراء الذي لم نكن أنا وأنت أبدًا جزءًا منه، ولكني الآن دخلت فيه رغماً عني بعد أن تركتني، لن أسألك لِـمَ فعلت ذلك؛ فالسبب واضح، كل ما أرجوه أن تكون سعيدًا في حياتك المقبلة.

يجب أن أسرع؛ فالكل سيأتي الآن، أليس هذا مثيرًا للسخرية؟ أسابيع تلت أسابيع قضيتها معك أتوسل إليك أن تعود إليَّ دون أدنى مساعدة

منهم، والآن سيأتون لينازعوني في الوقت القليل الباقي لي لأبثك رجائي الأخير، هل تريد أن تعرف من هؤلاء الذين سيأتون؟ عائلتك كلها وعائلتي أيضًا، ربما تظن ألا ضرورة لذلك ولكن هذا ليس رأيهم، دعنا منهم الآن، هل تتذكر الوردة الحمراء التي أهديتها لي في حفل خطبتنا؟ لقد جئتك بمثلها، هل تعجبك؟ هل تُذكرك بشي؟ لا يبدو أنها تصيب أي وتر في داخلك، لا بأس؛ فقد اعتدت ذلك منك في الفترة الماضية .. أرجوك أن تحاول أن تعود إليَّ، لماذا لا تنفض تلك الحالة التي تلبستك في الفترة الماضية؟ حاول أرجوك؛ فقد أصبح الأمر وشيكًا، لا تستطيع، حسنًا، هناك شيء آخر؛ أنا سأحتفظ بخاتم زواجنا وهداياك لي وكل صورنا في مكان سري لن يعلم به هشام، هل تظن أن هذا ليس عادلًا في حقه؟ ربما، ولكن هل هو عادل في حقي أن تخرج من حياتي بهذه الصورة؟

ماذا كنت سأقول أيضًا، ليتني قدت أنا السيارة في ذلك اليوم المشئوم؛ فقد كنت أنت متعبًا وتسبب تعبك في الحادث الذي أخذك مني، هل تريد أن تسأل عن الجنين الذي كان في أحشائي؟ لقد صار ولدًا جميلًا اسمه هاني، نعم، نفس اسمك، وينادي أخاك هشامًا: "يا بابا"؛ لهذا سأتزوجه، أجل، هذا هو السبب الوحيد، بالإضافة إلى أني مازلت شابة ولا بد أن أتزوج ذات يوم كما يقولون؛ فإن كان هذا ضروريًا فليكن هشامًا إذًا، أما

obeikandl.com

هراء الشركات والأموال فدعه لأبي وأبيك.

أتمنى فقط لو عرفتُ إن كنت تسمعني؛ فقد تحدثت إليك على مدى شهور طويلة دون أي رد من جانبك، تكلمت في كل أنواع الأشياء الصغيرة والتافهة وغير المهمة أملًا في أن أصيب عندك وترًا ما يخرجك من غيبوبتك العميقة بلا فائدة، والآن، هل تعرف ماذا سيحدث؟ سيفصل الأطباء عنك أجهزة الإعاشة؛ فقد أجمعوا على أنك ميت إكلينيكيًّا منذ شهور طويلة عشتها فقط كجسد ينبض بفعل الأجهزة، وعلى أنه ليس هناك أي أمل في عودتك إلى الحياة.

هل أنت خائف من الموت يا حبيبي؟ لا تخف، ربما أنت ميت منذ شهور فلا أحد يعلم، دعني أُذكرك بجملتك التي كنت ترددها كثيرًا: "الموت ليس أسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان"، هل تتذكر بماذا كنت تكمل عندما كنت أنظر إليك بدهشة؟ كنت تقول: "نحن مؤمنون ونعلم أن هناك حياة أخرى، ولكن ما يخيفنا من الموت أنه لا أحد يعود منه ليبلغنا بما يحدث هناك"، وأنت يا حبيبي كنت مؤمنًا ولم تفعل شيئًا سيئًا في حياتك، والآن أنت على وشك أن تموت صغيرًا بسبب حادث بشع؛ لهذا فلعل الله يدخر لك ما يرضيك في حياتك الأخرى.

ماذا بقي لأقوله، لا شيء، أنا أحبك كثيرًا، أكثر مما تتخيل، وأرجو

□□

أن ألحق بك سريعًا، الآن إن أمكن، دعني أُقبِّل يديك؛ فالجميع ينتظرون بالباب في انتظار ساعة الصفر، إلى اللقاء إذًا، ألقاك في حياة أخرى.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

جودو لن يأتى أبدًا

«لم يظهر اليوم أيضًا».

قالت لنفسها وهي تزيح (اللاب توب) جانبًا وترشف رشفة من فنجان شايها الساخن.

لم يظهر اليوم، ولم يظهر بالأمس .. لم يظهر منذ تسعة أيام كاملة.

وقبلها، ظهر وأرسل إليها رسالة على بريدها الخاص في المنتدى الإلكتروني الذي يجمعهما، فردت عليه وتحاورا كثيرًا.

وقبلها، ظهر ولم يتفاعل معها بأية رسالة على بريدها الخاص أو أي تعليق على مساهماتها.

وتكرر الموقفان كثيرًا؛ حين يحاورها يبدي اهتمامًا لا مزيد عليه، وحين يتجاهلها فكأنه لم يعرفها يومًا.

والمنتدى الذي يجمعهما هو منتدى علمي جاف يضم المتخصصين في

obeikandl.com

الكيمياء، المهنة التي يشتركان فيها.

منتدى دخلته على مضض بعد إلحاح من صديقتها وزميلتها في العمل دون أن تتصور أن يثير اهتمامها بهذا الشكل.

ولكنها نجحت في استقطاب اهتمام المشاركين بإضافاتها المميزة وانهالت عليها تعليقات الإعجاب؛ فزادت من مساهماتها، وزادت من تفاعلها مع الأعضاء الآخرين، وكان هو منهم، ولكنه لسبب ما استحوذ على اهتمامها بتعليقاته على مساهماتها، رغم أنها لا تختلف كثيرًا عن التعليقات الأخرى في إبداء الإعجاب بالمساهمة، بل وربما تكون نوعًا من المجاملة؛ فهي قد أحست فيها بمعانٍ خفية، وزاد من إحساسها ذلك أنه بدأ يراسلها على بريدها الخاص وعلى الفيس بوك؛ مراسلات بريئة في ظاهرها، تبدأ دائماً بدعوة إلى ندوة أو تعريف بكتاب أو موقع خاص بمهنتهما ثم تتحول لحوار أطول مما ينبغي ولكنه لا يتطرق إلا إلى أشياء عادية. تعودت كثيرًا مراسلته والحديث معه على الفيس بوك دون أن تراه ولا مرة واحدة إلا من خلال صوره على صفحته ودون أن يراها إطلاقًا؛ فهي لا تضع صورها على صفحتها.

لم تسأل نفسها عن الذي يحدث معها؛ فهذه صداقة إلكترونية مهنية ليس إلا، هكذا قالت دائماً في داخلها دون أن تحاول تفسير لماذا تفتقده إذا

غاب بهذا الشكل، حتى عندما صار غيابه هو القاعدة؛ فقد صار يغيب لأيام ثم يظهر لوقت قليل ليضع مساهمة على المنتدى ويترك لها تعليقًا على إحدى مساهماتها يمتلئ بالإعجاب أو يحادثها على الفيس بوك، وفي كل مرة كانت ترغب في سؤاله عن سبب غيابه ولكنها لا تفعل؛ فربما أحس أنها تهتم به أكثر مما يجب، وهو آخر ما ترغب فيه؛ فوضعه ووضعها لا يسمحان بتفعيل هذا الاهتمام أو حتى بوجوده.

مرت أيام صار فيها هو المهيمن على تفكيرها حتى أصبحت تدخل المنتدى عشرات المرات في اليوم الواحد لترى إن كان موجودًا، بل وتتبعت مساهماته السابقة لانضمامها لتعرف متى يدخل ومتى يضع مساهماته، ومنها وصلت للأيام والوقت من اليوم الذي يُحتمل أن يتواجد فيه على المنتدى. لقد استحوذ على تفكيرها، وكثيرًا ما يستحوذ البشر أو الأشياء عليه، ولكن الأمر يجب أن يتوقف قبل أن يدخل في سياق لا تقبله لنفسها.

نظرت إلى شاشة (اللاب توب) ثانيةً رغم تأكدها أنه لن يكون موجودًا؛ فاليوم ليس من الأيام التي يظهر فيها، ثم أغلقته وقامت لتضع فنجان الشاي الفارغ على المنضدة الجانبية .. مرت على حجرات أولادها لتتفقدهم واحدًا واحدًا وتتأكد من أنهم نائمون قبل أن تغلق الأبواب عليهم وتضع سماعتي (الآي بود) في أذنيها لتسمع إحدى أغانيها المفضلة؛ فلطالما حررتها الموسيقى والرقص مما يحزنها. اختارت أغنية إيقاعية تحبها

□□

كثيرًا، وبدأت تتحرك على أنغامها ببطء وتهز رأسها وذراعيها، ثم تزيد من سرعتها ودقات قدميها على الأرض؛ حتى صار الموقف صاخبًا كثيرًا.

قفزات متتالية..

حركات متناغمة للذراعين والخصر..

دورات سريعة متتالية..

- «هذا الاهتمام يجب أن يتوقف؛ فلا عائد يأتي من اهتمام امرأة مثلي برجل متزوج».

دورة إلى اليسار..

- «قد يكون مهتمًّا بي فعلًا، وقد يكون مراوغًا أو غير مهتم على الإطلاق، وفي كل الأحوال فهذا الوضع لا يليق بي، وقد يتطور إلى ما هو أكثر سوءًا».

دورة إلى اليمين..

- «يجب أن أنهي الموقف، نعم سأنهيه، سأجبر نفسي على ذلك».

obeikandi.com

قفزة للأعلى ثم سقوط رأسي..

- «حتى لو أعطاني بعض ما أفتقده؛ فلست أنا من تقبل بهذا الوضع».

قفزة طويلة ثم سقوط أفقي..

- «سأتوقف، سأتوقف، سأتوقف».

تسارعت أنفاسها وأحست بحر شديد رغم برودة الجو؛ فما زالت بملابس الخروج بعد انصراف آخر مدرس كان يعطي درسًا خصوصيًّا لابنتها الطفلة. خلعت غطاء رأسها وأطلقت شعرها البني القصير الذي تتناثر فيه بضع شعيرات بيضاء، ثم خلعت سترتها الخفيفة لتظهر ذراعاها البيضاوان وما على ذراعها اليمنى من كدمات نتجت عن محاوله زوجها لى تلك الذراع خلال آخر نقاش بينهما. عادت للدوران السريع في فستانها الأبيض الطويل الذي يُظهر كتفيها وما زالت تردد لنفسها:

«سأتوقف، سأتوقف، سأتوقف ... سأتوقف ولعل هذا النائم بالداخل يساعدني ولا يتخلى عني كما يفعل دائماً».

قلَّلت من سرعتها تدريجيًّا، ثم جلست لتلتقط أنفاسها .. فتحت (اللاب توب) ثانيةً وكما توقعت لم يكن موجودًا على المنتدى أو الفيس بوك:

obeikandl.com

- «إذًا فـ"جودو" لن يأتي اليوم[1] جودو لن يأتي أبدًا».

ألغت اشتراكها في المنتدى، وقامت بحجبه عن صفحتها على الفيس بوك. غيرت ملابسها في حجرة ابنها، ثم دخلت حجرتها على أطراف أصابعها كي لا توقظ زوجها النائم، تمددت بجواره والتصقت به وهي تُحكم الغطاء عليهما وتتمنى ألا يدفعها بعيدًا عنه لكي لا تُقلق نومه كما يقول دائماً.

***

(١) إشارة إلى "جودو" البطل الغائب الحاضر في مسرحية الكاتب الأيرلندي الشهير صمويل بيكيت "في انتظار جودو"، التي كتبها في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، وتدور حول شخصين ينتظران "جودو" منذ بداية المسرحية ولكنه لا يحضر أبدًا.

obeikandl.com

زيبر يكسا

أغلقت فاتن باب شقتها خلفها بهدوء مُحاوِلةً ألا تُصدر صوتًا، نزلت درجات السلم على أطراف حذائها خوفًا من دقاته العالية وهي تحمد الله أنها تسكن في الدور الأول، خرجت إلى الشارع وهي تخفض رأسها ناظرةً إلى الأرض؛ لا تريد أن يطالع عمال ومالكو المحال الذين يعرفونها وجهها .. وجه الفضيحة.

التفتت تستطلع الطريق قبل أن تعبره فالتقت عيناها بعيني عم حسنين مالك السوبر ماركت قبل أن يشيح عنها، أحست بغصة في حلقها وملأت الدموع عينيها وهي تتذكر ما حدث بالأمس؛ كيف أخرجتها طرقات عنيفة من المطبخ مسرعةً لتفتح الباب، قبل أن تزيحها حنان عن طريقها بعنف، ثم تقتحم الشقة وتدخل حجرة النوم لتجد عبد الحميد مستلقيًا على السرير بالبجامة يقرأ الجريدة.

□□

obeikandl.com

سالت دموع فاتن وهي تفتح شباك الميكروباص وتستدير متظاهرةً بالنظر إلى الطريق وتتذكر النظرة المتخاذلة على وجه عبد الحميد الذي لم ينطق بحرف للدفاع عنها أمام زوجته؛ اصفرار وجهه وارتعاد شفتيه وكأنه يوشك على الموت، صوت حنان المرتفع، والجيران الذين حضروا إلى شقتها، ودفاعها المستميت عن نفسها، وانصراف الجيران قائلين إنهم لن يتدخلوا في هذا الأمر العائلي، على الرغم من نظراتهم التي خُيل إليها أنها تنطق باحتقارها، ثم خروج عبد الحميد مع زوجته دون أن يمنحها نظرة واحدة. أخرجت فاتن منديلًا مسحت به وجهها وهي تضبط الإيشارب فوق رأسها؛ فقد وصلت إلى مكان عملها؛ مستشفى حازم للأمراض النفسية والعقلية.

نزلت من الميكروباص ودخلت من بوابة المستشفى وهي تُلقي التحية على رجل الأمن الذي خُيل إليها أنه يرمقها بنظرة غريبة؛ تُرى هل عرف الزملاء بما حدث أيضًا؟ أسرعت الخطو إلى المطبخ خوفًا من أن تقابل أحدًا آخر، لكن الطاهي والمساعدين قابلوها بصورة عادية؛ فتنفست براحة. جلست إلى إحدى الطاولات وهي تراجع قائمة طعام المرضى مع الطاهي وتعطيه تعليماتها، ثم تأخذ كوب الشاي الذي أعده لها أحد المساعدين وتنصرف إلى مكتبها المجاور للمطبخ حيث جلست وهي تُخرج سندوتشات الإفطار من حقيبتها، ثم فتحت الدرج وأخرجت صورة داخل

□□

إطار بسيط، ضمتها إلى صدرها وهي تبكي وتحادث الرجل في الصورة:

سبتني ليه، ليه؟ يا ريتك خدتني معاك أرحم من اللي أنا فيه.

وضعت رأسها على المكتب مستسلمةً لنوبة بكاء عارمة لعدة دقائق، قبل أن ترفع وجهها وتمسح عينيها، وتعيد صورة محمد؛ زوجها الراحل، إلى الدرج وهي تتحسسها بحنان، ثم تلتفت إلى صورة أخرى على مكتبها وتلمس وجه الشاب الوسيم داخلها قائلةً:

- ربنا يشفيك يا حبيبي، كله يهون عشان خاطرك.

أعادت فاتن السندوتشات إلى حقيبتها؛ فلم تعد تشعر برغبة في الأكل، وخرجت من الحجرة، ثم عادت تُلقي نظرة أخرى لتتأكد أنها أعادت صورة محمد داخل الدرج وأغلقته بالمفتاح؛ فهي تخشى أن يحضر عبد الحميد في غيابها ويجد الصورة بعد أن أخبرته أنها تخلصت منها كما أمرها.

قطعت فاتن الممرات مسرعةً في طريقها إلى غرف المرضى وقلبها يخفق أملًا وخوفًا حتى توقفت أمام إحدى الغرف وهي تحيي الرجل الجالس بجوار بابها، طرقت الباب مرتين ثم دخلت، فقابلها حازم الذي كان يقف على بُعد خطوات من الباب مطلًّا على حديقة المستشفى من بين قضبان النافذة الحديدية، التفت إليها مبتسماً ابتسامة لم تُخفِ وجهه الشاحب وهو يقول:

- طانط فاتن، وحشتيني، تيجي تطيري معايا، ما تخافيش أنا جناحاتي

obeikandi.com

قوية وأقدر أشيلك، شوفي..

قالها وهو يحرك ذراعيه المبسوطتين كجناحي طائر؛ فربتت على وجهه بحنان قائلةً:

- مش الدكتور قالك إن ما عندكش جناحات يا حازم، بص في الورقة بتاعتك، إنت خدت الدوا ولا لسة؟

رد حازم بنظرة مستغربة وعاد إلى النافذة، فتجاوزته وقد اعتصر الحزن قلبها إلى الشاب الجالس على الفراش الآخر في الحجرة المتسعة؛ ابنها حسن، الذي قابلها بايتسامة قبل أن يقوم ويحتضنها بقوة:

- إزيك يا ماما، وحشتيني قوي، تعالي نتكلم شوية.

اقتحم الأمل صدرها كرياح باردة في يوم حار؛ فهو يبدو أحسن حالًا اليوم، أمسكت بيده وقبَّلتها قائلةً:

- إزيك يا حبيبي، عامل إيه، إدولك الدواء؟

هز رأسه إيجابًا.

جلست على طرف الفراش تتبادل معه حديثًا عاديًّا قبل أن يصمت وتغور عيناه وكأنه ينظر إلى داخله، ثم ينظر إلى الورقة السميكة المغلفة بالبلاستيك على المنضدة بجوار فراشه، والتي كتب الطبيب فيها:

□□

لو شفت باباك أو خالك اعرف إن ده مش صحيح عشان دول ماتوا، ولو شفت سبت أو اتنين أو أربع أو مارس أو سبتمبر اعرف إن دي أوهام عشان دول ناس مش موجودين وما فيش حد اسمه كده؛ دول من صنع عقلك اللي بنحاول نعالجه، ما تسمعش كلامهم أو تهديداتهم أبدًا.

هزَّ حسن رأسه وعاد إلى الحديث مع فاتن التي فهمت ما يحدث بحكم معايشتها الطويلة لمرضه، فربتت على يده:

- إنت شفت حاجة؟

رد قائلًا:

- أيوه بس مشيوا، مش بيقعدوا كتير اليومين دول.

دمعت عيناها وهي تقول:

- الحمد لله، الحمد لله، الجرعة الجديدة بتجيب نتيجة.

غادرت فاتن حجرة حازم وحسن بعد نصف ساعة في طريقها إلى مكتب الدكتور غالب لإخباره بما رأته من حالة حازم الذي تحبه كإبن وتحفظ جميل (مدام سهيلة)؛ والدته، في قلبها وعقلها.

عرفت فاتن (مدام سهيلة) عندما حضرت إلى المستشفى لعلاج حسن ولم تستطع تحمُّل تكاليف العلاج المرتفعة رغم أسعار المستشفى

dvd4arab.com

الاقتصادية، فقد أنشات (مدام سهيلة) هذا المستشفى الصغير لمساعدة المرضى غير القادرين وأطلقت عليه اسم ابنها حازم؛ مريض الفصام الذي يُعالَج في نفس المستشفى، ولكن ارتفاع تكاليف الأدوية أجبرها على زيادة الأسعار حتى كادت فاتن أن تنصرف يائسةً لولا أن قابلتها (مدام سهيلة) وتعاطفت معها كأم لمريض في نفس سن ابنها، ومنحتها تخفيضًا ثم عيَّنتها في المستشفى كإخصائية تغذية؛ فهي ذكية وتجيد الطهي رغم أنها غير متخصصة في التغذية، ولكن (مدام سهيلة) رأت في ذلك فرصة لتخفيض نفقات المستشفى؛ لانخفاض راتب فاتن عن راتب أية إخصائية تغذية فعلية، فاشترت لها عددًا من الكتب عن تغذية المرضى التهمتها فاتن في أيام قليلة واستطاعت القيام بعملها على وجه معقول.

دخلت فاتن للحديث مع الدكتور غالب عن حالة حازم، فقال لها:

– ما تقلقيش يا فاتن؛ مرضى الفصام يوم كده ويوم كده، وبعدين حازم كان بيتكلم عن الطيران بس ما حاولش يطير فعلًا، مش كده؟

ردت:

– ربنا يطمنك يا دكتور، طيب وحسن؟

قال مبتسماً:

حسن كويس جدًّا وبيتحسن؛ إمبارح قالي إنه بيشوف الأموات

□□

والشخصيات الخيالية اللي بيشوفها قليل قوي، وإنها خلاص تأثيرها عليه بقى ضعيف، ولما بتقوله إن حد عايز يؤذيه أو يقتله ما بقاش يصدق، أنا عايزك تطمني خالص؛ زيبريكسا اللي بياخده حسن وحازم ده أحدث دوا لعلاج الفصام بكل أنواعه، وفيه ناس كتير قوي بره بتتحسن عليه وتقدر تعيش حياة معقولة، أهم حاجة إننا نحافظ على الجرعة المطلوبة وما ننساش الدوا أبدًا وإلا الأعراض ممكن تزيد تاني والمريض يرجع يشوف الهلاوس ويصدق أوهامه، إن شاء الله حسن هيروح معاكي البيت قريب، بس ادعي له هو وحازم، ومتخافيش؛ لو حازم تعب أكثر هأرجعه أوضة لوحده عشان ما يأذيش حسن.

خرجت فاتن من مكتب الدكتور غالب وقد انشرح صدرها، على العكس من المقابلة الأخيرة بينهما قبل أسبوعين، عندما أخبرها أن حسن يحتاج إلى أربعة حبات من زيبريكسا في كل جرعة بدلًا من اثنتين حتى تستقر حالته، وقتها خرجت من مكتبه باكيةً لأن كلامه يعني زيادة تكاليف المستشفى بمبلغ كبير لا تملكه، تذكرت مناقشاتها معه ورفضه تغيير الدواء لأنه جرب كل الأدوية الأرخص مع حسن ولم تُعطِ التأثير المطلوب، ثم خروجها من عنده وقد اتفقا على أن تظل الجرعة دون زيادة حتى تجد حلًّا ، تنهدت بحزن وهي تسترجع كيف وجدت الحل؛ فهذا بالتحديد ما أوقعها في براثن عبد الحميد، وجدت نفسها أمام صيدلية

obeikandi.com

المستشفى، كأن ذِكر اسم عبد الحميد ولو في أفكارها قد استدعاه بشخصه رغم أنفها، شاهدت ابتسامته اللزجة من خلال الباب الزجاجي فدخلت لتصورها أنه لا بد من مناقشة ما حدث بالأمس وإلا غضب عليها وأمعن في تعذيبها وتهديدها، خطت خطوات مترددة في اتجاهه فاتسعت ابتسامته التي تكرهها، جلست أمامه وهي تُلقي تحية الصباح وتغالب غيظها حتى غلبها فقالت:

– بقى كدة تسيبني من غير ولا كلمة امبارح وتسيب مراتك تفضحني قدام الناس كلها ولا كأني متجوزاك على سُنة الله ورسوله.

رد بهدوء من اعتاد المواقف المشابهة:

– يا بت بلاش هبل، ده كله من غيرتها منك، مش شايفة وشها اللي يقطع الخميرة من البيت، وبعدين ما إنتي قلتي لكل جيرانك إنك مراتي، هو إنتي سكتي يعني، سيبك سيبك، تعالي نتقابل النهاردة في شقة الواد جمال ابني؛ سافر هو ومراته وساب لي المفتاح عشان أشأر على الشقة، بدل أم قويق دي ما تنط لنا كل شوية.

قالت بحنق:

– وهتقول إيه بقى لجيران ابنك؛ إني واحدة جايبها من الشارع، لأ أنا مش هأروح هناك.

□□

رد بصوت بدأ يحتد:

– اسمعي بقى، أنا ما ينفعنيش النظام ده، لو مش عاجبك خلاص، روحي قطعي ورقة الجواز اللي في دولابك وانسي الموضوع، وما تلوميش إلا نفسك لو ابنك اتنكس واتجنن تاني، أنا ما احبش الست اللي ما بتسمعش الكلام، وبعدين فيه كتير غيرك يتمنوا.

غاص قلبها داخل صدرها وهي تسمع تهديده؛ فبذلت مجهودًا رهيبًا لتضع ابتسامة على وجهها وتقول:

– لأ لأ يا دودو، إنت زعلت، ده أنا بهزر، خلاص استناني على ناصية الشارع الساعة ستة ونروح سوا.

خرجت فاتن وهي تكافح غضبها؛ فكادت أن تصطدم بدعاء الممرضة التي جاءت لصرف أدوية نوبتها القادمة. جلست دعاء على المقعد بجوار المكتب وعبد الحميد يُخرج أوراق صرف الأدوية التي بعثها الدكتور غالب كما يفعل يوميًّا، ثم يستدير إلى دواليب الأدوية ويجهز دواء كل مريض ويضع الحبوب في كيس شفاف ومعها ورقة بموعد الدواء واسم المريض طبقًا لتعليمات (مدام سهيلة) التي شكَّت أن الممرضات ربما يسرقن علب الأدوية ليبعنها ويستبدلن بها حبوبًا رخيصة الثمن بعد انتكاسة تعرض لها حازم، فائتمنت عبد الحميد وحده على مهمة توزيع

□□

الدواء! لم يكن عبد الحميد صيدلانيًّا، ولكن ذهن (مدام سهيلة) استقر على تكليفه بالمهمة لتخفيض نفقات المستشفى بعد الاستغناء عن خدمات الصيدلاني الذي كان يدير الصيدلية والاتفاق مع آخر على مبلغ شهري يأخذه لتوقيع الأوراق اللازمة التي تطلبها وزارة الصحة للسماح بوجود صيدلية في المستشفى؛ خطة اكتملت باستغلال (مدام سهيلة) لعلاقاتها في وزارة الصحة لمعرفة أيام التفتيش لتتدبر وجود الصيدلاني في المستشفى.

التفت عبد الحميد خلفه بحذر ليلمح دعاء وقد جلست بجوار المكتب ناظرةً من الباب الزجاجي إلى إحدى زميلاتها في الخارج وهي تشير إليها وتبتسم، فقرأ في قائمة الدكتور غالب:

حازم محمود ٤ حبات زيبريكسا مرتين يوميًّا ثم وضع حبتَي دواء في كيس شفاف وكتب اسم حازم على ورقة دسها في الكيس وهو يغلقه بدبوس ويعد كيسًا ثانيًا مماثلًا لجرعة الليل، ثم يقرأ ثانيةً: حسن محمد حسن ٢ حبة زيبريكسا مرتين يوميًّا ويضع ٤ حبات من نفس الدواء في كيس مع ورقة باسم حسن ويعد كيس جرعة الليل المماثل أيضًا، ثم نظر خلفه ثانيةً ليتأكد أن دعاء لم تلحظ شيئًا قبل أن يكمل تعبئة أكياس باقي مرضى المستشفى القلائل، ويسلمها كل شيء لتنصرف مسرعةً قبل أن يتراجع إلى الوراء في كرسيه وهو يرشف شايه الساخن سعيدًا لأنه احتوى الموقف مع فاتن ولأنه سيقابلها اليوم.

□□

كان عبد الحميد – رغم سنه التي تجاوزت منتصف الخمسينيات – مشهورًا بمطاردة النساء العاملات في المستشفى .. أعجبته فاتن منذ رآها لأول مرة وإن لم تعطه أي أمل، كان عملها في المستشفى هو عملها الأول، وخبرتها في الحياة قليلة جدًّا، فقد تزوجت قبل أن تتم التاسعة عشرة بعد حصولها على دبلوم التجارة مباشرةً واعتمدت على زوجها في كل شيء. اتسعت ابتسامة عبد الحميد وهو يتذكر حيلته العبقرية التي مكَّنته منها بعد طول صدٍّ؛ عندما سمع من زملائهما عن مشكلتها وطلب الدكتور غالب زيادة جرعة الدواء وكيف ساءت حالة حسن، تذكر كيف ادَّعى أنه يعرف أحد العاملين بشركة أدوية وأنه سيطلب منه أن يبيعه أقراص زيبريكسا التي بها عيوب طفيفة ويدبر لها فارق الجرعة بمائة جنيه في الشهر سيدفعها هو، بينما هو في الحقيقة يسرق فارق الجرعة من دواء حازم، ثم كيف أقنع فاتن أنه سيجعل الممرضات يعطين فارق الجرعة الذي سيشتريه من صديقه المزعوم لحسن بالرغم من قواعد المستشفى التي تمنع شراء الدواء من خارجها. اتسعت ابتسامته أكثر وهو يتذكر كيف صدَّقته وكيف طلب منها المقابل بصفاقة لم يشعر بأي خجل منها، وكيف رفضت هي إلا أن يتزوجها، وطلبت – لحسن حظه – أن يكون زواجًا عرفيًّا؛ لتحتفظ بمعاش زوجها الذي يكفي بالكاد مع راتبها من المستشفى ومعونة ابنتها المتزوجة حديثًا لعلاج حسن ويبقى القليل

لنفقاتها هي. قام عبد الحميد وهو يصفر بمرح ليجمع حاجياته؛ فقد بقي القليل حتى يقابل فاتن في السادسة كما اتفقا.

أنهت فاتن عملها في مطبخ المستشفى وتركت تعليمات وجبة المساء للطاهي، اقتربت الساعة من السادسة ويجب أن تقابل عبد الحميد. سارت في الممرات لتطمئن على حسن قبل انصرافها؛ فانزعجت للضجة الصادرة من الغرفة قبل أن تفتحها لتجد حازمًا في نوبة هياج وهو يحاول اقتلاع القضبان الحديدية التي تغلق النافذة ويصيح في الدكتور غالب ودعاء اللذين يحاولان إيقافه:

– سيبوني، قلتلكم عايز أطير، أنا عندي جناحات، الملايكة زمايلي قالوا لي إني أقدر أطير، سيبوني بقى، سيبوني.

شعرت بقلبها يتمزق إشفاقًا على حازم وهي تسمع الدكتور غالب يقول لدعاء:

– إنتي بتدي له الدوا مظبوط والجرعة كاملة؟

ردت دعاء:

– طبعًا، زي ما بأخدها من الأستاذ عبد الحميد بالضبط.

التفت دكتور غالب إلى فاتن قائلًا:

□□□

– إحنا نقلنا حسن في أوضة ٦ مؤقتًا لحد ما نسيطر على حازم وننقله من الأوضة وبعدين هنرجعه، هو كويس، روحي شوفيه هناك.

خرجت فاتن وقد دمعت عيناها لتسلم على حسن وتُقبِّله وتنصرف مسرعةً إلى حيث ينتظرها عبد الحميد؛ فهي لا تريد أية مشكلات بينهما على الرغم من رغبتها في الاطمئنان على حازم، وعلى الرغم من كرهها لكل لحظة تقضيها مع عبد الحميد. سمعت فاتن وهي تقطع الممرات صراخ حازم وقد خرج من الغرفة وصعد السلم وثبًا يتبعه الدكتور غالب ودعاء واثنان من الممرضين الرجال، والدكتور غالب يصيح:

– إمسكوه بسرعة، لازم أديله الحقنة وإلا هيأذي نفسه، متأكدين إن باب السطوح مقفول؟

قبل أن يضيع صوته وسط صراخ حازم العالي وصياح الممرضين، اجتازت باب المستشفى؛ فاختفى الصوت، وقطعت الحديقة في طريقها إلى البوابة التي وصلتها وهي تنظر إلى ساعتها القديمة ثم تجتازها لامحةً مؤخرة سيارة عبد الحميد المتهالكة في المنعطف القريب. ازداد انقباض قلبها وهي تسمع الجلبة ثانيةً قادمةً من أعلى هذه المرة، التفتت إلى الخلف إلى حيث مصدر الصوت لترى أشباح أشخاص على سطح المستشفى في عتمة المساء القادم وقد دار بينهم صراع قطعه صوت ارتطام عنيف وصراخ عالٍ تبينت

□□□

فيه صوت (مدام سهيلة). عادت فاتن إلى داخل المستشفى وقد قطع الرعب أنفاسها وأنساها خوفها من تأنيب عبد الحميد القاسي، لترى من بعيد ملابس حازم البيضاء تعكس ضوء مصباح الحديقة الساقط على جسده الممدد وقد أحاطت برأسه المهشم بركة من الدماء ما زالت تحتفظ بحرارتها.

***

obeikandl.com

النـهـايـات

وبين انتظار وانتظار يموت الإنسان، يموت ألف مرة، يفقد الثقة، تتلاشى إرادته، يسقط، ينهض، يترنح، يمتلئ حلقه بأدعية خائفة لا يعرف كيف أتت، يصرخ دون صوت، ينظر في وجوه الآخرين ليرى وجهه، يتذكَّر، يقاوم، ينهار، يسقط.

عبد الرحمن منيف في روايته الرائعة "النهايات"

استيقظت هيفاء هذا الصباح بإحساس جديد لم تستطع أن تعرف ما هو على وجه اليقين.

هل هو الشوق إلى الحرية أم الفرحة لتحققها الوشيك؟

هل هو السعادة بما هو آتٍ أم الخوف من ألا يأتي؟

هل هو التطلع إلى المجهول أم التوجس منه؟

خرجت من غرفة الضيوف التي قضت فيها الليل بهدوء وألقت نظرة

□□□

obeikandl.com

مستطلعة على غرفة نومها المظلمة من خلال بابها الموارب؛ لقد خرج ممدوح إلى العمل مثل كل يوم، وكأن شيئًا لم يحدث بالأمس .. لا يهم؛ فخروجه يتيح لها الحرية في فعل ما تريد من دون أن يقاطعها بالمناقشات أو التهديدات.

أضاءت حجرة النوم وأخرجت حقيبة السفر الكبيرة من أسفل الفراش وبدأت في تعبئة ملابسها وأشيائها الضرورية؛ ستأخذ الذي تحتاجه أكثر الآن، أما ما تبقى فستعتمد على الخادمة في جمعه وتوصيله إليها. استعرضت ثياب العمل الرسمية والأحذية عالية الكعب؛ الجينز الأزرق الجديد الذي اشترته خلال آخر رحلاتها إلى باريس، وباقي أصناف الجينز الذي تعشق ارتداءه في أي مكان غير العمل وزيارات عائلة ممدوح المملة، الأحذية الرياضية، بِدَل التدريب، أدوات الماكياج ومجفف الشعر وكريمات الوجه و ....

انتهت من جمع ما قدَّرت أنه ضروري فنادت الخادمة وطلبت منها أن تحمل الحقيبة إلى السيارة وتعد لها كوبًا من الشاي، جلست أمام التليفزيون ومدت ساقيها على المنضدة الصغيرة أمامها وهي تُسقط خفيها أرضًا وتعقد يديها خلف رأسها فمرت أمام عينيها لمحة من مشاجرتها بالأمس مع ممدوح؛ تلك المشاجرة الغريبة التي أتت بعد فترة من الوفاق الظاهري الذي يخفي تحته برودًا قاتلًا وتوقفًا لأي تفاعل بينهما حتى اقتصر الأمر لشهور على تحيتَي الصباح والمساء لو تصادف أن التقيا في المنزل؛ تلك

□□□

المشاجرة المفتعلة بسبب بدلته الرمادية التي تأخرت في المغسلة ولم تُجدِ مكالمات الخادمة المتكررة لاستعجالها أو ذهاب السائق إلى المغسلة بنفسه؛ فقد "بقيت ساعات حتى تجف، وسنرسلها لكم في الصباح؛ فلا يمكن أن نسلمها لكم وهي مبتلة ولا يمكن وضعها في المجفف وإلا تلفت"..

هكذا قال صاحب المغسلة بأدب شديد، فعاد السائق إلى البيت يحمل الرسالة التي لم تعجب ممدوحًا واستدعت منه منولوجًا طويلًا عن النساء العاملات المهملات لأزواجهن، وعن مطالبه الكثيرة التي يزعم عدم تحققها، وعن أحلامه المجهضة التي لم يخبرها بها ولو مرة، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يجب عليها تحقيقها وكأنها من الممكن أن تقرأ أفكاره .. لم يتوقف عن الكلام، ولم يُجدِ تذكيرها له بأنه يوجد في خزانة ملابسه العديد من البِدَل منها ثلاث رمادية تشابه تلك التي في المغسلة لدرجة كبيرة. لم يكن وقع المشاجرة على هيفاء كبيرًا؛ فكثيرًا ما فعل ذلك للتنفيس عن ضغوط العمل والاحتقانات التي تمر بها سوق الأعمال وتتأثر بها شركاتها؛ وهكذا فلم تأبه لما يقول حتى دخل في حالة من الرثاء للنفس ختمها بقوله:

- يعني كان لازم أتجوزك إنتي، ما البنات كانوا كتير، نصيب.

قالها وهو يهز كتفيه وينظر إلى الأرض واتخذ صوته نبرة مفجوعة وكأنه قد اكتشف الأمر فجأة بعد سبعة وعشرين عامًا من الزواج وبعد ثلاثة أبناء وابنة وبعد أربعة أحفاد، كان الأمر أقوى من تحمُّلها، وأقوى من

□□□

قرارها السابق بألا تأبه لما يقول والذي اتخذته عندما تدهورت الأحوال وزادت الشُّقة بينهما بعد زواج الابنين الكبيرين والابنة حتى صار كل في عالمه الخاص، كان الأمر أقوى منها فلم تملك سوى أن ترد:

– نعم؟ نصيب .. هو إنت كنت تطول حتى تحلم إنك تتجوزني، لولا بس إني كنت عمياء وهبلة بتمشي ورا قلبها وأبويا كاسر نفسي بعمايله وجريه ورا الستات فلقيت إنت فرصة تلف دماغي.

– بقى كدة، يعني ده رأيك؟

– طبعًا، إذا كان فيه حد لازم يندم يبقى أنا، إنت لولا جوازك مني كان زمانك لسة مرمي في حيك الشعبي مع ست مفشكلة وعشرين عيل.

– وتندمي ليه يا هانم، ولا تزعلي .. إنتِ طالق.

قالها فصمت كل شيء، وتوقف الهواء وشحبت إضاءة غرفة المعيشة حيث كانا يجلسان، "هكذا؟ أنتِ طالق بمنتهى البساطة؟" فكرت هيفاء وهي تحاول أن تطرد حالة الفزع التي تملكتها مُذكرةً نفسها بأن خطتها منذ فترة كانت أن تنتظر حتى يكبر أصغر الأبناء الذي التحق بالجامعة العام الماضي ثم تنهي زواجها بممدوح، ولكن ها هو قد سبقها بإنهائه قبل الموعد الذي قدَّرته بسنوات قليلة، لا بأس؛ فالفارق ليس فترة كبيرة وطارق ابنهما الأصغر كان شاهدًا على خلافاتهما وسيتفهم. بدأت هيفاء في استدعاء أفكار كثيرة إلى رأسها لتطرد الضيق والفزع وتبدو رابطة

□□□

الجأش أمام ممدوح، ونجحت في ذلك بما يليق بسيدة أعمال كبيرة مثلها خبيرة في فنون الحوار والتمويه والتلاعب بالبشر، ولكن ذلك الإحساس الثقيل داخل قلبها لم يفارقها، لقد وصلا إلى النهاية التي كانت متوقعة، بل ولم تكن نهاية وحيدة؛ فقد سبقتها نهايات ليست قليلة.

إحداها كانت عندما عاد ممدوح من سفر ولم يجد محشي ورق العنب الذي يحبه على المائدة، كانا حديثي الزواج ولم يحدث أبدًا أن أخبرها عن أكلته المفضلة وافترض تلقائيًّا أنها تعرف أن كل أبناء الأحياء الشعبية يحبون المحشي! وكيف كان لها أن تعرف؟ فهي لم تعرف أحدًا من تلك المناطق عن قرب سواه هو؛ فقد قضت معظم طفولتها وسنوات تعليمها خارج مصر. لم يستوعب ممدوح الموقف رغم تفاهة السبب واستعمل كثيرًا من الألفاظ التي هي في ظاهرها نصائح ولكنها تحمل في باطنها تهديدات مبطنة والتواء وتلاعُبًا لم تكن تطيقه وقتها، بل ولا تطيقه الآن رغم أنها صارت تتقنه كجزء من الأساليب المتبعة في دنيا الأعمال القاسية. لم تطق تهديداته المبطنة إذًا ولكنها لم تتكلم حتى وصل إلى جملته الأخيرة التي قالها بصوت هادئ وهو يرمقها بنظرة ثاقبة ألقت الرعب في قلبها الغض؛ قلب العروس التي لم يمر سوى شهور على زواجها:

– أنا كان ممكن ما أقولكيش وأسيب الأمور لحد ما تبوظ ونتطلق أو أتجوز عليكي، بس أنا بأقولك أحسن عشان تصلحي نفسك.

□□□

كانت تلك النهاية الأولى التي أحكمت الخناق على هيفاء لفترة طويلة بعد تلك الواقعة وأصابتها بالرعب والحيرة، لماذا لا يطلب ما يريد بمنتهى الصراحة؟ فهي لم تتأخر أبدًا في تلبية طلباته مهما كانت صعبة، ولكن لم يكن هذا أسلوب ممدوح الذي تعود على الالتواء منذ طفولته؛ فهو لا يطلب شيئًا حتى لا يوصف بأنه كثير الطلبات، ثم يؤنب ويهدد إذا لم تُلبِّ طلباته التي لم يصرح بها، ويتصرف بصورة طبيعية بعد انتهاء التهديد وكأنه لم يقل شيئًا بينما يرتعد داخلها إثر تهديده؛ فإذا عاتبته اتهمها بإثارة الخلاف على موضوع منتهٍ، وإذا طلبت منه أن يصرح بما يريد قال إنه لا يريد شيئًا.

كانت النهاية الأولى إذًا تهديدًا بالطلاق، وكذلك كانت الثانية التي أخذت نهجًا تصاعديًّا عالي الصوت وانتهت بتهديد بالطلاق أيضًا بسبب خلاف تافه بينهما، ولكن موقف هيفاء اختلف هذه المرة؛ فقد أدركت أنه من النوع الذي يهدد ويتلاعب وأرادت أن تُشعره أنها من النوع الذي لا يخاف التهديد، فقالت:

– الكلمة دي مش لبانة في بقك، لو عايز تعملها اعملها؛ ارمي عليَّ اليمين وكل واحد يروح لحاله، ولو مش عايز ما تقولش حاجة مش عايزها؛ لأن ده بينقص من حبي ليك وبيبوظ علاقتنا.

– حب .. علاقتنا .. طظ.

قالها ودخل إلى حجرة النوم لينام قليلًا واستيقظ ليحدثها وكأن شيئًا

□□□

لم يحدث، فتجاهلت الأمر هي أيضًا وإن كانت قدرته على التجاهل قد أفزعتها؛ فقد بدا لها كآلة بغير شعور، أي إنسان هذا الذي يجرح القريبين منه بتلك القسوة ثم يعاملهم بصورة طبيعية بعد ساعات قليلة؟! لم تكن وقتها تعرف أن هناك من البشر من هم كذلك حتى صار هو لديها مثالًا حيًّا.

أخذت النهاية الثالثة منحًى صاخبًا أيضًا ولكن من جهتها هي؛ خلاف عادي تبعه تهديد بالطلاق ردت عليه بقولها:

موافقة.

فرد عليها متحيرًا:

- موافقة على إيه؟

- على الطلاق.

لم تعطه بعدها فرصة للكلام؛ فقد التقطت هاتفها وطلبت أباها وهي تدعو في سرها أن يرد حتى سمعت صوته:

- بابا، أنا وممدوح قررنا نتطلق، خد أهوه معاك عشان تتفقوا على التفاصيل.

قالتها ومدت يدها بالهاتف إلى ممدوح الذي شحب وجهه وارتعدت شفتاه؛ فهو لم يقصد سوى التهديد، ولكن ها هو الآن يجب عليه أن يواجه أباها؛ ولي نعمته، رجل الأعمال الكبير الذي كان يعمل موظفًا صغيرًا

□□□

obeikandl.com

في شركته واستطاع أن يتقرب من ابنته ويُسقطها في حبه ويتزوجها، كل ذلك دون أن يفقد أبوها صورته القديمة أمامه؛ فما زال ممدوح يرتعد أمامه ولا يخاطبه سوى بكلمة "يا باشا"، لم يستطع أبدًا أن يقول له: "يا بابا" كما يفعل أزواج شقيقات هيفاء، ولم يستطع أن يراه في صورة والد زوجته؛ كان الباشا وسيظل كذلك دائماً بالنسبة إليه .. التقط الهاتف منها وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع ويرد بصوت مهتز:

- صباح الخير يا باشا، إزيك يا فندم.

- .....

- لا يا باشا والله، دي خناقة عادية بس هيفاء حضرتك عارف بتكبر المواضيع، هو أنا أقدر أزعلها.

- .....

- ماشي يا باشا، أوامرك.

أنهى ممدوح المكالمة وأنهى تهديدات الطلاق من محادثاته وخلافاته مع هيفاء التي بدأت تتحداه تحديًا سافرًا؛ كانت تريد أن تعرف هل كف عن تهديدها لخوفه من فراقها، وهو ما كانت تتمناه كأية امرأة تحب زوجها رغم كل الخلافات، أم خوفًا من الطرد من جنة أبيها ومن نفوذه. وكالمعتاد في كل أمر يخص ممدوح، لم تعرف هيفاء أبدًا؛ كل الذي عرفته أنه كف

□□□

عن التهديد بالطلاق بينما بدأت هي تطلب الطلاق في كل مشاجرة فيدير لها ظهره ويمضي حتى تهدأ فيتصرف بطبيعته التي تقتلها قتلًا، ولا يمنعه هذا من افتعال المشاجرات وعدم التصريح بما يريد ويحتاج، ثم إشعارها بالتقصير والذنب في كل مناسبة تتاح له.

مرت سنوات ورحل الباشا والد هيفاء، وكبر الأبناء وتزوج الثلاثة الكبار وأنجبوا وأصبح ممدوح جدًّا بما يليق بمظهره وشعره الشائب وبطنه التي تضاعف حجمه مع السنوات، وأصبحت هيفاء جدة بما لا يليق بمظهرها الذي حافظت عليه حفاظها على حياتها نفسها، على الرغم من أن ممدوحًا لم يعد يعيرها أي انتباه حتى إنها كانت تقول ضاحكةً:

– والله ده أنا لو الكائنات الفضائية خطفتني زي الأفلام الأجنبية وسابوا بدالي واحدة جلدها أخضر وشعرها أحمر وبثلاث عيون ما هياخد باله.

كانت تقول ذلك وتستمر في العناية بنفسها وممارسة الرياضة والتردد على عيادات ومراكز التجميل حتى صارت عندما تمشي بجانب ممدوح، في المرات النادرة التي يخرجان فيها معًا، تبدو وكأنها ابنته الكبرى أو أخته التي تصغره بسنوات كثيرة، وصار الناس يتعجبون عندما تخرج مع أحفادها ويسمعونهم ينادونها: "يا أنَّا"، فقد كانت هيفاء تعد نفسها لذلك اليوم الذي يتخرج فيه ابنها الأصغر ويتزوج لتقول لممدوح:

– وداعًا، لقد أخذت من عمري أكثر بكثير مما تستحق بفضل هؤلاء

□□□

الأولاد .. لقد حان الوقت لكي أتنفس هواء لا تتنفسه .. لأعيش في بيت لا أمشي فيه على أطراف أصابعي خوفًا من ثورات غضبك التي لا يمكن التنبؤ بها .. لأسافر وقتما يحلو لي من دون أن تفسد عليَّ فرحة السفر بطلباتك المتكررة وانفجاراتك العصبية والشكوى من المكان الذي نسافر إليه حتى لو كان أفخم الفنادق في أجمل البلدان .. لأكف عن سماع شكواك المتكررة من كل شيء، وكلامك عن رغبتك في السفر وحيدًا والتمتع بوقتك مع أصدقائك وكأني أنا وحدي سبب شقائك المستمر والبعد عني فقط هو الذي سيسعدك.

أعدت هيفاء نفسها لذلك اليوم، ولكنه أتى مبكرًا، أتى دون معركة مع ممدوح ليطلقها، ودون معركة مع أولادها ليوافقوا على أن تطلب الطلاق الذي سيبدو لهم وكأنه قد فُرض عليها فرضًا، وكل ما عليها أن تفعل الآن هو أن تنهي كوب الشاي وتأخذ حقيبة ملابسها وتمضي إلى الشقة الواسعة التي تملكها قريبًا جدًّا من بيتها الذي أصبح بيتها السابق؛ فهكذا اختارت مكان الشقة التي اشترتها لتكون بالقرب من ابنها الأصغر، ورفضت أن تؤجر الشقة بعد أن خرج منها آخر مؤجر منذ أسابيع وكأنها قد تنبأت بما سيحدث. ستمضي إلى الشقة إذًا وتتصل بأبنائها لتخبرهم بما حدث، وسترسل رسالة لممدوح لتطلب منه أن يوثق الطلاق ويرسل إليها الوثيقة على شقتها الجديدة، ولكن ماذا لو رفض التوثيق وردها إلى عصمته؟

هزت رأسها لتطرد الفكرة، لا لن يرفض، وإن فعل فستهدده بالتشهير

□□□

به في الجرائد وتقتله رعبًا؛ فقد أصبح من رجال الأعمال الكبار بفضل زواجه منها وميراثها في شركات أبيها الذي استعملاه لإنشاء شركات جديدة، منها ما يديره ممدوح ومنها ما تديره هي؛ لا لن يستطيع أن يرفض بكل تأكيد.

أنزلت هيفاء ساقيها عن المنضدة الصغيرة بعد أن سرى فيهما الخدر، ووضعت كوب الشاي من يدها وهي تستعرض في ذهنها آخر ما تبادلته مع ممدوح من كلمات خلال مشاجرة الأمس، فهو لم ينسَ أسلوبه في تهديد الآخرين وتهديدها هي بالذات؛ وهكذا فقد أتبع جملة "أنتِ طالق" بقوله:

– والله العظيم لأكون متجوز بكرة ست ستك، أنا هأعرف إزاي أذلك.

– بقى كدة، طيب وديني لأتجوز سيد سيدك أول ما العدة تخلص.

– يا شيخة ضحكتيني، مين هيتجوز جدة عندها اتنين وخمسين سنة وأربع عيال؟

– طيب بص لي كدة، ما هو إنت طول عمرك أعمى القلب و بتشوف كل الناس إلا أنا، ده شكل واحدة عندها اتنين وخمسين سنة، ده أنا شكلي ما يجيبش حتى أربعين سنة، أيوه يا سيدي، الحاجة أم شعبان جارتكم في حتتك القديمة عندها خمسين سنة ومش هتلاقي راجل يتجوزها؛ ما هي مفشكلة وسنانها واقعة وشكلها عندها مية سنة، إنما هيفاء سيدة الأعمال اللي تشتري عشرة زيك بفلوسها، الرجالة يقفوا لها طوابير.

□□□

- يعني هتتجوزي واحد طمعان في مركزك وفلوسك، هتعمليها؟

- وأعمل أبوها، ما أنا عملتها قبل كدة، مش اتجوزتك إنت.

خفضت هيفاء رأسها وهي تقاوم دموعها وتحاول إخفاءها عن عيني الخادمة التي حضرت لتأخذ كوب الشاي الفارغ إلى المطبخ، اعترفت لنفسها أنها غالبًا لم تكن لتمضي في تنفيذ خطتها بإنهاء حياتها مع ممدوح لولا ما حدث منه بالأمس، ولولا ما قاله عن استحالة أن تجد زوجًا غيره، ولولا ما أفصح عنه صراحةً لأول مرة من رغبته في إذلالها، لقد تحملت تهديداته السابقة التي وضع بها نهاية تلو أخرى لأحلامها في الحب والسعادة، حتى فرغت حياتها من كل شيء بهيج ومن كل فعل يشتركان فيه معًا، نعم، هذا ما فعله ممدوح، انتظرت وانتظرت أن يفهمها، أن يفصح عما يريد، أن يتقبل محاولاتها لتعديل الأوضاع دون فائدة، لقد انتهت النهايات وحان الوقت لبداية جديدة، ومن أقدر على البدايات من هيفاء؛ قوية الشكيمة التي لا تهاب الحياة وصعابها؟ هكذا شجعت نفسها وهي تقوم لتلبس حذاءها الرياضي، وتسوي ساق الجينز الأزرق والقميص الطويل بلون البنفسج، ثم تنزل سلم بيتها السابق للمرة الأخيرة، دون أن تنظر وراءها، في طريقها إلى بيتها الجديد.

***

□□□